ريمون كاربانتييه

مَعْرِفَةُ الغَيْر

ترجَمة

نسيم نصر

منشورات عويدات
بيروت. باريس

مَعْرِفَة الغَيْر

الطبعة الثالثة ١٩٨٤

١ | الغير

لأنه ليس ممكناً أن نحيا
دون أن نفكر ، فعلينا ان
نحيا في عالم جديد يقتضينا
أن نفكر بصورة جديدة .

الانسان المعاصر مجبر على مواجهة مسألة الغير . ولم يكن مستعداً لها . لكن الحقيقة هي ان مسألة الغير ليست جديدة . قد أصبح واضحاً الآن أن لا إنسان دون مجتمع إنساني . أما النسبة إلينا ، فالغير ، حتى الآن ، إما أتباع لنا وإما أعداء . الأتباع نعني بهم من نعتمد عليهم ، ومن يتحقق اتفاقنا وإياهم طبيعياً وعضوياً : بالتزاوج ، وبالعائلية ، وبالمدنية ، وبالمستوى لمجتمعي أو بالنسبة الوطنية . والأعداء نعني بهم منافسينا خصومنا ، الذين لا يتميّزون ، في طبيعتهم العمياء ، إلا بأنهم دهى منّا حيلة وأكثر منا عدداً ، ويعملون لتأخيرنا ولتهديمنا .

ولكن هوذا الكوكب الأرضي يغزوه الانسان ، فيغيّر

وجهه. وهي ذي أكثرية الناس الأحياء لم تكن مرة قط، وحدها، في مواجهة الطبيعة العذراء. ومجمل هؤلاء تقريباً يصبح عاجزاً عن أن يحيا أكثر من بضعة أيام في صفة فردية منعزلة مع الطبيعة. وليس المقصود هنا ملاحظة تشاؤمية، ولكن إلقاء ضوء للجلاء عن حقيقة الوجه الانساني المعاصر.

وأخيراً، بعد أن أخضع الانسان لسلطانه سطح هذا الكوكب الذي يحمله راح يخلق بيديه إمكان خراب هذا المحمل. إذن، خطر هذا الخراب لم يعد خطر الطبيعة، كما انه لم يعد خطر الآخرين. والتكافل الواقعي الذي تفرضه امكانية الرؤيا المظلمة النووية تُرينا أن الخطر الأعظم، الذي يهددنا، هو نحن أنفسنا. وهكذا انتقلنا من مسألة الآخرين الى مسألة الغير. والغير يعني هذا الآخر فينا، الذي سنتناول معه علاقات أقرب شبهاً الى محاورات داخلية سنتبادل فيها الكلام بيننا وبين أنفسنا، منها الى مناظرات مع آخر، هو، بشكل ما، مواجه لنا، غريب، سواء أكان خصماً أم حليفاً، ولكنه دائماً خارجي. فالحوار مع الغير سيحل محل الجدال مع الآخرين.

ونحن لسنا على استعداد للحوار مع الغير، ولا للحياة مع أنفسنا. ففكرتنا المعتادة في الجدال هي المعارضات، والمعارك، والفتوح، ولا يمكن أن نتصورها كوناً آخر غير المناظرة.

وثقافتنا ، ولغتنا هذه الأداة التي منها نصوغ فكرتنا ، تغمران حياتنـــا الذهنية . ثم تضعان شروطاً لصيغة معرفتنا ، يعني امكانياتنا ذاتها في معالجة شؤون دنيانا ، وأكثر من ذلـك ، في خلق دنيانا . فمن واجبنا ، بلا شك ، أن نعيد امتحان كلماتنا واحدة واحدة لنكون قادرين على فهم عالمنا الجديد . واليوم ، مثلاً ، ماذا تعني كلمة خصم أو عدو في كون أصبح فيه ، خلافاً لكل مؤالفاتنا في التفكير، الخطأ أو فقدان رباطة الجأش خطراً مهدداً بأن يصير سبباً لضياع حياتنا ؟

ولكن الانسان ليس مهيأ لهذه التغييرات . وإنما هو متعود، في مجرى آلاف السنين ، أن يدافع عن حيـــاته ، وأن يؤمّن ازدهار وجوده ضد الطبيعة والآخرين ، ولهذا فقد خلق علمه ، وفلسفته ، وأساطيره ، وميثولوجيته ، ضماناً لفهم هـــذه الغزوات ، وبعث الحماس فيها ، والقدرة على إرساء مفاهيمها . ولكن، هل عرف أن يفهم الآخرين كعنصر لهذه الطبيعة ؟ غير ان هذا التطبُّع الذي مارسه الانسان قد حال بينه وبين بنـــاء طريقة فكر ، وتقنية بحث ، وإيجاد وسائل عملية تمكنه من أن يقود هذا التطبُّع عندما كان يجب أن ينصبّ بكل مستطاعه العقلي على فهم هذا الموضوع الأصيل الذي هو نفسه . هكذا يُفهم لماذا تخلفت العلوم الانسانية مئة مرة عن العلوم الطبيعية .

وهكذا أيضاً يُفهم ، اليوم ، لماذا تعتبر الرقابة الخلقية التي تفرض على التقني ليحترم عمله ، احتقاراً لـ « خدمات الهيئة العاملة » . وهكذا أيضاً يفهم هذا الخطأ ، الذي يحسب جريمة يرتكبها الانسان المعاصر ضد نفسه ، وهي جريمة ازدرائه الفلاسفة ، والأدباء ، ورجال السياسة والإدارة الذين يحاولون أن يبنوا معرفة بالنفس ، ويعدّوا وسائل تقودنا مع أبناء جنسنا المتجاوزي الشكليات المتّبعة في الطبيعة المتوحشة . ولكن ، دون شك ، يجب أن نلاحظ ان علم الانسان الذي يقدّمه اليوم ، الفلاسفة ، والأدباء ، ورجال السياسة ما يزال في درجة تلمُّس الطريق ، مثيراً الضحك بتردداته ، داعياً الى اليأس في تناقضاته ، باعثاً على الكره في أخطائه .

ولكن على من تقع تبعة الخطأ ؟ على من ، إن لم يكن على كل أولئك الذين شاركوا ، بصورة ما ، في تخلي الانسان عن مواجهة نفسه ، وفي اعتزال أفكارنا عن مواجهة المصاعب التي نلاقيها في تفهم الوقائع الانسانية ؛ هذه الوقائع التي تأخذنا في شرك حركتها الخاصة ، بعد أن طاش انتباهنا ، بدلاً من أن نستعرضها ملزمين أنفسنا بالرضى عنها ؟ واذا فكّرنا في الأمر جيداً ، أفليس من حقنا أن نسأل أنفسنا عما اذا لم يكن ضعف العلم الانساني قد حصل نتيجة لهذا النوع من الجبن ، الذي كان سبباً

في تدهور الفكر البشري نحو سهولات الطبيعة ، التي نلتقطها دون عناء خارج أنفسنا ؟

ومهما تكن معرفة الانسان غير ملائمة للعالم البشري المعاصر، ومهما تكن متخلّفة في تلمس طريقها ، فإن ذاك أو هذا لا يكفي لبطلان وجودها . والنزعة الطبيعية التي سميناها ، منذ لحظة ، مناظرة ، لا نحتاج الى الذهاب بعيداً جداً لكي نجد منها نوعاً من الموجز الأخاذ. فأقاصيص لافونتين التعليمية (أمثاله)، وهذه العبقرية الوقحة التي يخصُّون بها الأولاد في بلادنا ، صادرة عن خطإ في أحكام مسبقة، تعطينا وصفاً سموه «علماً» ، وشرحاً دعوه « فلسفة » للوقائع الانسانية ، وفي الوقت نفسه ، ترتسم لنا ، في شبكة من الخيوط الذهبية ، نتائج منطقية يستخلص منها قواعد سلوك تدعى المغازي . ولكن أقاصيص « الذئب والحمل » و « الحيوانات المريضة بالطاعون » أو « الغراب والثعلب » ، لا وجود للغير فيها . فعالم الآخرين هذا ، هو عالم الاستبداد بالضعفاء حيث يجد الناس مكاناً لقوتهم ، في مناظرة قوى الطبيعة ، لدى المعسكرين .

في تاريخ الفكر ، حقاً ، نجد المسيحية ، المعلنة في تطلعاتها الى المثل العليا التي كانت حتى ذلك الحين متفرقة ومنعزلة ، كانت توجساً بظهور الغير . ولكن يجب أن نعترف جيداً بأن

بذور التقدم الانساني التي ألقاها الجليلي في العالم ، بقيت حتى الآن ، وقد غلبت على بقائها صفة مشروع . فالمسيحية كانت وستبقى دائماً أملاً ، في عالم يجهل بصورة مفجعة مثلَ السامري .

ان معرفة الغير في طريق التنفيذ ، وستكون عند تحقيقها معرفة الانسان نفسه . فالمبادىء والطرق العلمية ، وهذا الأسلوب في المعرفة ، الذي أدهش حتى صاحبه ذاته بسلامته ، ودقته ، ونجوعه ، يجب أن تتلاءم كلها وموضوع هو ، في الوقت ذاته ، موضوعنا الذي نعالجه . وجهد كهذا مع النتائج المرتجاة منه يستطيع أن يغذّي في أنفسنا ، بصورة مشروعة ، الأمل في أن نرى الانسان ينتهي الى مستقبل ، لا يكون رؤيا أرضية مظلمة أو مثلاً طبيعياً . ونحن لا نطمح الى أن نقدم لقرائنا ، في هذا الكتاب الصغير ، المتناول معرفة الغير ، أكثر من كشف تمهيدي عما يمكن أن يكونه هذا العلم المعروف بعلم الانسان .

ان الكلام على معرفة النفس العلمية ، هو إثارة سريعة لمنازعات في موضوع المعرفة العلمية المطبقة على الوقائع الانسانية . فهل نستطيع معرفة الانسان بوصفه شخصاً انسانياً بعيون العلم ؟ وهل نستطيع أن نحترم فيه القيم التي بها يتجاوز الطبيعة : كالمسؤولية ، والحرية ، واللاإدراكية ، وإدخال هذه القيم في معرفة علمية بالانسان ؟ وهل نستطيع أيضاً معرفة الانسان ،

بوصفه شخصاً فردياً ، بطريقة علمية ؟ هناك تيار من الفكر لا يؤمن بهذا .

يأتي الفكر الشعبي في المقدمة بالنسبة الى رؤية العلم عدواً للشخص . وهناك حركة تفكيرية ، بدأت تأخذ أهميتها المأساوية في النصف الثاني من هذا القرن . وقد تولـّد منها قلق عميق جماعي ، تجلى في أشكال مختلفة تشعبت الى فروع لا تحصى؛ وقدتأصل في القلوب بمتانة بلغت درجة قوتها أن أصبحت مقاومة لا تزعزعها حجج المنطق الواهية ، التي تعارضه عادة . والى هذا القلق العميق يمكن ان ننسب هذا الزي الذي اعتمده أعداء العلوم ، وهذا النجاح الذي أحرزته كل أشكال السحر ، وهذه الإيحاءات الى أدعياء حكم بُعِثت من ماض مظلم أو حُلِمَ بها في شرق بعيد ، يعتبر وهماً أكثر منه حقيقة .

أما فكرة ان العلم مهدّم الشخص الانساني ، فيبدو ان لها منبعين مختلفين جداً . فالالتباسات التي نشأت بينهما لا يمكن أن تتأتى إلا من عدوى تحمل طابع المغزى الذي كانت أهدافه وكلماته المولـّدة الإثارة منبره ، في الغالب .

وأما الفكرة التي تسبق ، فهي ان العلم خلق تقنيات خطرة على الانسان : وهكذا راح عامة الناس يشهدون رجالاً ذوي نظارات يصنعون أسلحة ضخمة التدمير ، داخل مختبراتهم

الإبليسية . ويجب أن نضيف الى هذه المعدات ، والآليات ، والانتاجات الاستهلاكية ، التي خلقتها الصناعة البشرية تلبية لبعض حاجاتهم ، التي تؤلف ، من جهة أخرى ، أخطاراً على حياة الأفراد والجنس البشري . وهذا الشكل العدائي الثاني لأعمال العلماء وتصاميمهم يتجسم في التذوّق المعلن المتنـــاول المواد المسماة « طبيعية » . وهكذا يقدمون نوعاً من المشروبات الروحية ، في العائلات الكريمة ، يدعونه eau-de-vie ، جاء به العم غاستون ، يمتدحون ملاءمته الصحة قائلين : « انه لا يحتوي غير الأشياء الطبيعية » .

والسواد الأعظم من الناس ، الذين لا يحسنون تمييز هذه العلاقات المعقدة بين العلم ، والتقنية ، والصناعة ، والاقتصاد ، يعلق بأذهانهم ، إذاً ، ان التقدم المادي تصحبه بعض الأخطار على الانسان . ولذا فهم يترجمون حكمهم على العلم بمجمل من العداوة .

ولكن ، ليس في ما قدمنا غير واحـــد من مظاهر هذه العداوة . وهم يرفضون ، أيضاً ، باشمئزاز وخوف ، الفكرة القائلة بأن العلم يستطيع أن يتخذ الانسان موضوعاً للدرس ؛ يعني الانسان نفسه . وهكذا يفكر الانسان ، بقليل أو كثير من الوضوح ، ان وضع كائنه موضع تناول للدرس ، وان هذا

البحث الاستجلائي في صميم شخصه سيكونان تدخـــلاً لا بل تطفلاً ، لا قبول له ، على قرارة انسانه .

وانِنا نجد ، في هذا الموقف ، الخوف من وضوح لا نتمناه، يكشف عن الذات ترافقه ردة فعل قد تكون مشروعة ، ضد كل مساس بقرارة الأنا .

ولكن العلم الذي هو معرفة هدفــــه ، هو ، أيضاً ، عند منشإ الأعمال الرامية الى هذا الهدف . ولا بد هنا من أن نتذكر القاعدة الباكونية المختزلة : « إعرف لتتبصر وتبصّر لكي تعمل » . ويخشى الانسان أيضاً أن ينتهي علم الانسان الى تغيير كائنه ، وهو تغيير لا يستبعد أن يكون ، في الوقت نفسه ، تجريداً له من ملكية ذاته . والفكرة التي شاعت ، هي انه بالعلم نستطيع أن ننتزع من الشخص ذاته ، وهي صيغة حديثة من الكلام ، نعني المس الشيطاني ، نجد تعبيراً عنها في الخوف من التسمم الفيزيائي بالمواد المصطنعة التي تكلمنا عليهـــا سابقاً . ونكتفي الآن بان نُعيدّ ، بكل بساطة، نوعاً من نماذج الأشكال المأخوذة بعداوة العلم . ولكن المجال الآن لا يتسع لإظهار الأخطاء .

ويبدو العلم كأنه إلقاء الضوء على « آليّات » المـــادة . فبالعدوى ، إذاً ، نظن ان العلم يجعل هدفه مادة وآلة ،

وهكذا يبدو سهلاً ان نفهم لماذا أصبح عامة الناس مرهفي الاحساس الى تحويل الانسان الى آلة ، والى جهـــاز تلقائي الحركة ، والى موضوع مألوف فيه الاستردادات المناقضة العلم .
ولا نرى أن نمضي في تعداد كامل يتناول الأشكال التي تتخذها المقاومة الفكرية والعاطفية ضد العلم بوجه عام ، وبوجه خاص ضد علم الانسان ، لأن هذا التعداد يشغل مكاناً لا يتناسب وهذه الدراسة . وفوق هذا فإن هذه المقاومة لا مثيل لها — مناقضة المألوف الفكري لا تدهش إذا عرفت أحـــداث هذا المنطق العاطفي الوهمي الذي حكم ببطلانه ريبو — إلا الاعجاب المفرط الذي يرتمي فيه الأشخاص أنفسهم ليستفيدوا من تدخل العلم أو يطالبوا بتدخله ، أو تدخل ما يعتقدون بأنه علم ، في أشد الأصعدة صدماً للمواجهة لفرط تعقدها . ويمكن أن نجد مثلاً متطرفاً لهذه النزعة في استخدام كلمة علمي وسحرها في الدعاوة والاعلان . فكل ادعاء في عرض تمويهات « علمية » أو ماء غازي علمي ، وكل ما هو من هذه النوعية ، هو علامة خلط أفكار امام هذا الموضوع الضال عن طريقه .
وعلى صعيد نقد أرقى فإن عداوة العلم الانساني تستند الى الرأي القائل بأن الطريقة العلمية قادرة فقط على بلوغ معرفة ضخمة تتناول الأهداف الطبيعية ، وهي معرفة عاجزة أمام

المیزات الدقيقة التي تتميز بها الحقيقة الانسانية . أخيراً ، ان العلم بوصفه معرفة فئات بمماثلة كل فرد ونموذجه ، لا يستطيع ان يدّعي معرفة كل شخص بالتحديد ، حتى لو كان بعد جهد هائل قد بلغ معرفة كل فئات الوقائع الانسانية . وهذا النقد الأخير ينتهي بنا أيضاً الى أن نحكم بان العلم يثير عملية توازن قيم ، وحذف أفراد ، وإدخال الناس مدخلاً طبيعياً على مستوى الحشرات الاجتماعية . وأوجـار النمل هي الهدف المعتاد للكلمات المرّة العنيفة التي يطلقها أولئك الذين لا يرون في علم انساني إلاّ وسيلة لجعل كل انسان في حدود النملة . وهذا الرأي يجد تعزيزات له قائمة على المماثلة في طرق تنظيم يسمونها علمية تتناول العمل ، وهي طرق تحكم على الانسان بوظائف اختصاص تشبه وظائف الفئات الحشرية .

وإذا تعمقنا في المواقف والحُجج ، فاننا نكتشف ان رفض علم انساني قائم على فكرة قاعدية يمكن اختزالها كما يلي : « إذا كان في الامكان الحصول على علم انسان ، فهذا يعني انني موضوع درس كما هي الحال في حجر أو في كل موضوع طبيعي وهكذا ، فالعلم يتيح معرفة كل مادة في هذا الحجر ، يعني السيطرة عليه نوعاً ما . إذاً ، إذا كان العلم يدرسني ، فهو سيعرف كل المادة التي هي أنا ، وسيحيلني الى هذه المادة ، ولا يبقى لي شيء أبداً

مما يخصُّني من حيـــاتي ، ومن آمالي ، ومن شخصي ، ومن منتقياتي ، ومن حريتي » . ويمضي التحليل أيضاً الى أبعد عند أولئك الذين يرتفعون الى مستوى تفهُّم أكـــثر عقلانية . « والعلم ، في بحثه عن قوانين الطبيعة ، لا يستطيـع البحث إلا بطرح مبدإ السببية . إذاً ، اذا كان العـلم بعد أخذه إياي موضوعاً للدرس ، يأخذ في تحليل سبيباتي ، فانه سيعرف وأنا سأعرف أيضاً ، مقدماً ، الى أين أذهب . وإذا عرفت الى أين أذهب ، فهذا يعني انني لن أستطيـع بعد ذلك أن أختار الى أين سأذهب » . لأن السببية على مستوى الشخص الانساني ، تلغي بشكل ما، الزمن، إذ تصل ، بصورة من توحيد المعنى للكلمة، الماضي بالحاضر وبالمستقبل ، وإلغاء الزمن يعني إلغاء المستقبل . فأنا ، بموجب قانون سببي صرف ، كائن وكأن المستقبل يقيّدني مثلما الحاضر يفعل بي . و « سأذهب » قول ألغـــاه قول « أنا ذاهب » . وعندما تغزو السببية صعيد الانسان ، فإنه يتلاشى كالوهم ما كنت أحسبه كينونة هذا الشخص . فلا أجد مكانه إلا آلة محدودة ، مخبأة ، حتى ذلك الحين ، خلف جهلي ، وأجد ان السكوت سيكتشفها ويعمل على اكتشافي .

أيكون العلم ، كما يتراءى من خلال الفكرة الشعبية ، تلك

الواقعية الساذجة التي تريد أن يكون العلم وسيلة الى معرفة ماهية كل شيء بصورة أكيدة ؟

أم هل العلم ، كما يبدو بالمعنى الكلاسيكي ، معرفة موضوعية تتناول العناصر المادية المعيّنة في حقيقة العالم الخارجي ؟

أم هل يجب أن نفهمه ، اليوم ، كما فهمه العالِم الفيزيائي غاستون باشلار القائل : الحقائق تشكو من ضعف تمحيصها لأبنائها ؛ فمعرفة معبّرة عن نفسها في صيغ من الترجيح ؛ ومعرفة متعددة الأشكال والدعوات ، ومعرفة يحلّ فيها محل الحقيقة الواقعية مبدأ الحقيقة – القاعدة المستندة ، مؤقتاً ، الى وقائع معدّة لتشرح، والى تهذيب الافتراضات التي لأجلها كانت الشروح ؟

أم هل المقصود ، في آخر البحث ، أن نقع على علم بالانسان يكون قد اخترع طرقه الخاصة ، ومفاهيمه الخاصة ، لكي يتلاءم وموضوعه الخاص ؛ علم يكون قد ورث روّاده ، جامعاً حصائلهم، مضيفاً إليهم طرقاً وأفكاراً جديدة تستجيب في تطابقها الى حاجات موضوع الدرس ؟

هذه التصرفات جدّ مختلفة في فكرتها، وطرقها، ونتائجها، حتى أنها لا يمكنها أن تعالج انتقادات العلم قبل إلقاء ضوء

يكشف عن العلم المقصود بالمعالجة . واعتراض مشروع كهذا ، نواجه به الواقعية الساذجة ، يسقط أمام علم دقيق الثقة باختباراته . وهناك خوف آخر ، تظهر قيمته أمام تطبيقه القاسي على إنسان الطرق التي نجحت في فيزياء الطبيعة الجامدة ، ولم يبق لها من مبرّر للبقاء أمام علمٍ إنساني تحترم قواعده ميزاته الخاصة .

وأخيراً ، يجب أن يُطرح السؤال لمعرفة ما إذا كان العلم قادراً على معرفة كل شيء عن الانسان ، عندما يكون فكره وطرقه مطابقة حاجات موضوعه . والمسألة تنحصر تماماً في ان يسأل الباحث نفسه : اذا كان علم الانسان يستطيع أن يولّد ثقة شاملة بالعلم ، يعني أن يؤمّن فلسفة وخلقية تكتفيان بمضمونها . أو على العكس ، أن نتبين هل المسألة ، في ما يتعلق بالشخص الانساني ، قائمة في أن يبني الانسان فلسفة وعلماً أخلاقياً ، يؤدي تآلفها ، مع علمٍ جدّد بنا نفسه ، الى تمكنها من الاستجابة الى تطلعاتٍ هي أجزاء لاستيفاء وجوده ، دون أن يجد نفسه بلا مرتكز مع عقله . وكم هناك من عقول هامة تقود الى التفكير بأن تصرفاً كهذا هو في طريقه الى صميم الأفكار

المعاصرة . ويبدو هذا التصرف ، على الرغم من كونه متردداً، ومخيّباً الأمل ، مشاركاً في تقدم كبير لأفكار ميزتها المشتركة في أنها رفضت ، للتنظيمات الكبيرة البسيطة ، تفسيراً بدأنا نفهم منه انها كانت تنظيمات ساذجة .

٢

العلم والكائن الانساني

لقد مضى زمن طويل والأفكار النيّرة تبحث عن كيفية لصوغ قواعد لطريقة معرفية لا تشوّه خصائص الموضوع الذي تكتشفه . وقد فكّر العلم منذ قرن تقريباً ، في أن يحمل جواباً نهائياً الى هذا البحث عن الكلمة الحقيقية وعن الخطاب الكامل . وهو جواب يجب أن نعترف بثبوته ، يؤكده نجاح الفيزياء الكلاسيكية والتقدم التقني ، اللذان يصلهما الرأي العام بالعلم دائماً ، مع بعض الطيش غالباً . غير ان طريقة الفيزياء الكلاسيكية قد تطورت تطوراً هائلاً ابتداء من مطلع القرن العشرين ، إذ واجه العلم الصعيد المجهري ، أو على الأصح ، الصعيد الفوق المجهري ، الذي لا يُعرف إلا بترجمة تقدمها أجهزة تُترجم المعقولات بإعطائها مفهوماً عن الحقيقة بعيداً جداً عن الواقعية الكلاسيكية . ولكن هذا الأسلوب من التفكير ، الذي لم يتجاوز حلقات الاختصاصين ، لا نعيره

الآن بالاً ، لأنه لم يستخدم ، بعد ، كقاعدة لتدريب التفكير في علوم الانسان ، وفي جعلها شعبية .

ومع هذا ، فإن التفكير الاختباري الكلاسيكي، كما استطاع أن يعرضه عـــالِمٌ كبيرتيلو ، وأن يمنهجه فلاسفة العلوم الانكلوساكسون ، في القرن التاسع عشر ، ومـا تزال أكثرية الأدمغة العاملة في هذا الحقل تعتبره ، حتى اليوم ، نموذجاً للمضي في اكتشاف الحقيقة . ولا نقوم بعمل جريء ان نحن اختصرنا ذلك في بعض مبادىء تبدو لعيون أكثرية الباحثين ، كأنهـــا قواعد العقل البسيطة . وبما ان « الطبيعة » تضع في تصرفنا وقائع متلابسة ، ومعقدة ، ومتناقضة ، ومتغيرة ، متصـــلة بأهوائنا ، وبتعامينا ، وبجهالاتنا ، فعلى الانسان العالم أن يضع لها نظاماً بطريقة مبنية على «عزل الوقائع المختصرة والمحدودة»، تـُجري بموجبها « الاختبارات المؤدية الى تدابير موضوعية » . وكل الصيغ المستعملة هنا ، لهـــا في الأفكار المعاصرة معنى واضـــح . وهو المعنى الذي نتمسك به كنقطة انطلاق في البحث [1] .

---

(١) كل بحث نقدي لا يمكن أن ينجح تربويـاً إلا اذا استعمل أولاً الكلمات في معناها المفهوم . ولا يتم إعطاء هذه الكلمات معنى أعمق ←

والتدابير المعتمدة ، هنا، تؤلف في المعنى المقصود ، الحقائق العلمية . وهي بالتالي تنظم تبعاً لقوانين عامة « عائدة الى بعض أنواع الأصعدة » . وعندما يصبح البحث على جانب مرموق من التقدم ، فالقوانين تجتمع تحت قبعة المبادىء الكونية « العائدة الى بمجمل الأصعدة » . ولكن أساس الحقيقة العلمية قائم دائماً في معطيات الاختبار ، التي تكتشف الطبيعة الحقيقية تحت إمكان وقوع أخطاء استعمال المعاني ، والتفسير العامي .

والمبادىء هي التي قادت الخطوات الأولى التي خطاها علم الوقائع الانسانية . وسنرى ، في ما يلي ، كم كانت الصعوبات التي صادفتها في وضعها موضع العمل ، وكيف ان العلم اضطر الى أن يتطور ليجابه الحواجز التي ينصبها نهجه الخاص على طريقه .

← إلا بالأسلوب النقدي نفسه ، وبالتالي ينتهي الى تعديل في المعاني . وهو نقد يبتدىء بتحديد الكلمات ، ناسباً إليها معاني مختلفة عن المعنى المألوف عامة ، دون أن ينتهي الى إيصالها الى القلب المركزي . في النقد الفلسفي ، خلافاً لما هي الحال في الرياضيات ، يأتي التحديد في النهاية . فتنتج عن هذا ضرورة اعتماد نهج تفكيري تقدمي ، يعتمد مسلسلاً متعرجاً ، يقود الفكرة شيئاً فشيئاً الى خلاصاتها .

٣

هيكل الوقائع الانسانية ومحاولة تفكيكها الى عناصر أولية

إن الفكرة الديكارتية التي ألفناها « كطبيعة ثانية » ، والتي نراها ، في شكل أوضح في الأشياء ، إذ نقطّعها الى عدد من الأجزاء تقتضيه الضرورة ، لكي يكون كل جزء معروفاً بصورة معينة ، فكرة يجب أن تحفظ بين الأوليات لقيادة بحث الوقائع العلمية التي تتناول الكائن الانساني . وفي هذا الصدد ، نجد ان تاريخ « زمن ردّة الفعل البسيطة » غنيّ بالتعليم .

وفي مجرى القسم الثاني من القرن الأخير ، فكّر علماء ألمان بتأسيس ما أسموه بسيكوفيزياء ، يعني فيزياء الحقيقة السيكولوجية .

القصد واضح في انتقاء المؤلفين هذه الصيغة من التسمية . والنهج الذي اتّبعه « وندت » ، مؤسس العلوم الاختبارية ، يمكن أن يلخّص كما يلي : بما ان المسالك البشرية

معقّدة ، الى حد أنها تستعصي على مراقبة المعرفة ، فلنبحث عن العنصر القاعدة لهذا السلوك ، لكي نعيّن أو نحدّد قوانينها. إذن كل حيوية الانسان تحصر فعاليتها في ردّة فعل هدفها إثارة الأجهزة العضوية فيه ؛ وهذه الإثارات تهيجها حركات هي ما يؤلف الأجوبة عن هذه الإثارات .

ولكي ننظر بوضوح في هذا النظام « الإثاري الجوابي » ، فلنعمد الى تبسيطه . عندئذ نرى أننا نملك الذرة الابتدائية المسلكية . ولكي نفهم هذه الذرة يكفي أن نضيف بعض العناصر المعروفة الى بعضها الآخر . وهكذا يُعرف الكل بواسطة مجموع أجزائه ، وكل واحد معروف تماماً بذاته . وهذا الهيكل من التخطيط « الإثاري الجوابي » جعل الدستور الفكري لإحدى كبريات المدارس في السيكولوجيا العلمية التي توحي أيضاً بالتطبيقات العملية المعاصرة ، التي عرفت باسم « سيكولوجيا السلوك » .

وابتدأت هذه التمهيدات التي بدت لمؤلفيها كأنها حقائق لأنها من صنع العقل . فكان الانسان الموضوع يحمل على سماع إثارة صوتية قصيرة جداً « مصدرها طرقة صنج » أحدثت على مسافة متر تقريباً من أذنه . ويجب أن يردّ على هذا الصوت مركّزاً ، بأسرع ما يستطيع ، إبهامه على المضغط الذي يمسكه

بيده . واليوم ، هناك صناعة علمية هي نمط من صناعة الساعات الدقاقة يقيس الوقت الذي يفصل مـا بين طرقة الاسطوانة وحركة الإبهام . وهذا الاختبار مـا يزال قيد الاستعمال في المختبرات السيكوفيزيائية الجامعية وفي المصالح السيكوتقنية في الصناعات .

ما هو التعليم الذي كان يأمل وندت وزملاؤه في العمل أن يستخلصوه من هذا الاختبار ؟ المأمول أولاً ، بصورة أكيدة ، الترضية النظرية لبلوغهم العمل العلمي الأول المتنـاول الحركة الذهنية ؛ ومن ثم امكانيـة تمييز المواضيع البشرية بعضهم من البعض الآخر بغية تحديد السرعة الصوتية الخاصة بكل منهم ؛ ومن ثم أيضاً يأتي الأمل في استباق النظر الى المسالك المعقّدة ابتداء من ردّات الفعل البسيطة . فكان يبدو ثابتاً ، حقاً ، ان الاختبار على وقت ردّة الفعل كان يفسح المجال لمعرفة من هم المواضيع البشرية ، ذوو ردّات الفعـل السريعة والنظامية ، معرفة ثابتة محددة، فيمكن اختيار من هم على مأمول من النجاح في المسالك التي تتطلب هذه الصفات « أو على الأقل ، التي كان يحسب ، مقدماً ، انها تتطلب هذه الصفات » .

ولكنه من المفيد جداً أن نشير الآن الى ان هذه الآمال الثلاثة خابت عند الاختبار .

وما أسرع مـا بدا من أن تدخلاً كاملاً للشخصية الموضوعة كان مختبئاً خلف ظاهر حركة الابهام البسيطة ، المستجيبة الى سماع الصوت . وفي الحقيقة ، ان الجواب ، بعيداً عن أن يكون مجرد عمل ألية عضوية دبّره الصوت ، يستدعي للتدخل مواقف الذي يجيب . ولقد كشف الاختبار ، مثلاً ، عن دور الطريقة التي بلـّغت بموجبها صيغة أمر الانسان—الموضوع. وفوق ذلك ، فـإنه لا يجوز الاعتقاد بأن الجواب يمكن إعطاؤه باستقلالية ذاتية آلية. ولننبّه الذاكرة الى ان الانسان – الموضوع لا « يجيب » إلا عندما يطلب منه الجواب ، وذلـك طبعاً ، اذا قرّر الإجابة عما سئل، مهما كانت حججه للإجابة .

فإذا جربنا الانسان الموضوع الى جانب الجرس، بأن نضع له في يده المضغط ، فإن إبهـامه لا يرتكز تلقائياً على المحرك اليدوي . ليس من مشترك بين هذا « المسلك الجوابي » وبـين ردّة فعل تلقائية من مثل شحنة قـوية عضلية مسببة عما تحت الركبة .

وعندما يعرف الانسان – الموضوع أنه طلب منه أن يركّز ، فإنه يقدم بعض الوقت لردة الفعل ، التي يقيسها الجهاز الآلي . ولكن هذا الوقت ليس أقصر وقت قادراً على أن يقدمه . ويجب أن نتوسل لمسلكية الجواب تنشئة حقيقية . فمجرى

الاختبار يقول للانسان موضوعه : « هلمّ بنا ، يجب أن تقدم أقصر – ألقِ بنفسك على المحرك اليدوي – يجب أن تجيب مع الصوت في الوقت نفسه – حاول أن تغطي الصوت بحركتك – الخ . » وعندئذ تتكرر الاختبارات ، فيلاحظ مجريها ، دائماً تقريباً ، تقدماً على النتائج الأولى . هذا اذا لم يُحرج الانسان الموضوع فيبعث بمجرى الاختبار هدية للشيطان ، ولكن هذه المسلكية تؤلف جزءاً من المسألة . والاختبار يُثبت ، من جهة أخرى ، ان كفاية المختبر ، في أن يظهر نفسه أخّاذاً ، مقنعاً ، يلعب دوراً خالصاً في معدل النتائج المحرزة .

وهكذا نستطيع أن نأمل الحصول ، بعد بذل جهود كثيرة ومرور بعض الوقت ، على أفضل أوقات ردّة الفعل التي يتوقع أن يعطيها الانسان–الموضوع. وهكذا نرى جيداً كم نحن بعيدون عن التلقائية ، وهي الشحنة الصوتية التي كثيراً ما تعادلها عامة الناس خطأً، بوقت ردّة الفعل البسيطة . ولكن تدخل المواقف في وقت ردّة الفعل يمكن أن يجلو حقيقته اختبار آخر .

من الممكن اعطـــاء أوامر الاختبار للانسان – الموضوع بطريقتين مختلفتين . الأولى تسمى : أمر الموقف المحسوس . ففي هذه الحال الأولى نسعى الى الحصول على جواب تكون سرعته أقصى ما يستطيعه الانسان – الموضوع، ملحّين على الانتباه لكي

يقدّم للصوت : « انتبه جيداً للصوت – فإنه قد يأتي بغتة – لا تتركه يمرّ واضغط حالاً » . إذن ، الانسان – الموضوع يتركز انتباهه على سماع الصوت . فهو أُذن تسمع ؛ ومن هنا جاءت صيغة الكلام : موقف محسوس .

أما الموقف الآخر فيسمى: العضلي . وفيه يربون الانسان – الموضوع ليوقظ انتباهه الى إبهامه ، الذي يجب أن يتهافت في حركته فور وصول الصوت : « فكـّر بإبهامك – فانه يجب أن يثب عليه ، ويغطـّيه ... » .

وهكذا يجب أن نلاحظ ان النتائـــج تختلف بعضها عن البعض الآخر كثيراً ، تبعاً لطريقة التعلـّم المستخدمة . وأقصر الأوقات نحصل عليها مع الموقف المسمى عضلياً ؛ والفارق ، في نظام العشرة أجزاء من مئة من الثانية ، هو دائماً ذو معنى مهما يكن الناس – المواضيع . ووقت ردّة الفعل المسمى بسيطاً لا يعتبر قطعاً عنصراً ، وجسماً بسيطاً لهذا المزيج المركـّب الذي هو المسلك الانساني . فهو مسلك كامل بنفسه . وهكذا نبدأ أن نواجه ميزات مسلك إنساني . وفي هـذا التقريب الأول ، يظهر المسلك كمجمل حركات وأفعال ذات علاقـــة بمحيطها ، متصلة ، من جهة ، بالطريقة التي يتناول بها ممثل هـذا المسلك حركاته والمحيط ، ومن جهة أخرى ، متصلة بميوله بالنسبة الى

نتيجة عمله على ما أسميناه محيطاً . وهوذا نحن في موقع تعارض آلية ابتدائية ، ذات تجـــاوب مباشر بين عمل ونتيجة حتمية محدودة مباشرة . حقاً هناك إنماء حيوية ، جعله حادثاً خارجياً في حالة هياج عضوي . ولكن جواب هذا الإنماء ، وهو أبعد من أن يُحكم عليه آلياً بهذا النداء ، يأتي حصيلة جهـد طويل عضوي داخلي .

والانسان – الموضوع لا « يستجيب » لإنماء حيوية، أوان الحادث . عندئذ يقال ان الحادث هو إشارة . هنـــا ، في المصادفة، الاشارة تريد أن تقول: «يجب أن أضغط بسرعة على المحرك اليدوي » . الصوت يصير علامــة الحركة التي يجب أن تعمل مثل الإشارة تعلن ، على جانب الطريق ، أمراً لقـــائد القطار الحديدي . يوجد إشارة ، يعني دمغة ، عندمـــا يوجد الأداء « الإيصال » . فالسيكولوجيا ، وعلم النفس الاجتماعي [1] وعلم اللغـــة ، والسياسة ، والفلسفة الحديثة بدأت تدخل في متونهـــا مسألة الأداء « الايصال » الى حد جعلته فيه الشاغل الكبير لعلم الانسان . وكل الناس يعلمون الى أية درجة بلـغ

---

(١) راجع ، بالعربية ، لدى منشورات عويدات ، كتاباً بهـــذا الاسم لجان ميزونوف .

تعقّد هذا العلم وصعوبته ، أو هم يقدّرون مبلغ ذلك . وعلم الدمغات هذا الذي يمكن أن نسميه علم الأداء[1] يميل الى الحلول محـــل السيكولوجيا القديمة ، الى درجة أصبحت فيها كلمة سيكولوجيا لا تعني في نظر بعض النقاد ، غير صيغة سقطت بمرور الزمن تتناول درس الوقائع الانسانية أوحى بهـا وثوق كلي بالعلم تجاوزه الزمن أيضاً . ولكننا ، هنا ، لا نعتمد إدانة السيكولوجيا ؛ ولا أن نتعلق بعلم ساذج يتناول آليـــات المسلك الانساني ، ولكن السيكولوجيا تبدو لنا موشكة أن تغيّر مبدأ الأداء « الايصال » بمثل طبيعتها . ولقد بدأت هذه الحركة التغييرية بشكل موسع .

وبما ان وقت ردّة الفعل لم يكن بسيطاً ، فـــإنه لا يقدّم مقيـــاساً لمعطى ابتدائي عن الشخص الذي يقوم بالاختبار ، المقياس الذي نقيس به وقت ردّة الفعل . فليس ، إذن من

(١) لكن صيغة علم الأداء تفسح لكثير من الالتباسات . ولقد كان هذا العلم، في أصله علم تطور معاني الكلمات بكل بساطة . وهو، اليوم لبعضهم ، يعني درس كل وسائل اتصال المعنى ، في كل اللغـــات ؛ واللغوية إذن هي واحد من فروعه ، متخذة غرضها هذه اللغة الخاصة التي هي اللغة . وفي « علم الأداء العام » الذي عرف عن كورزيبسكي ، يجب اعـــتماد درس المسالك البشرية وتنشئتها درساً كاملاً في سبيل تقدم إنساني .

المدهش انه لم يكن ممكناً أن نكشف عن شيء ما، كان يمكن أن يكون السرعة الصوتية – الحركة، الخاصة بكل شخص . وفي الواقع ان نتائج اختبار شخص ، والتي تتوقف ، كما رأينا ، على الظروف التي جرى فيها ، لا تميّز ، بصورة ذات مغزى ، الأشخاص المختبَرين بعضهم عن البعض الآخر. وللتعبير عما تعني في صيغة احصائية ، نقول : ان التغيير في ما بين الأفراد أدنى منه في داخل الفرد . وبتعبير آخر ، وتبسيط قليل ، نقول : ان البُعد بين نتائج إنسان مختبَر واحد ، أكبر منه بين نتائج أناسٍ مختبرين مختلفين [١] .

وهكذا يثبت أنه من الصعب أن نبني ، على هذا المعطى المائع ، حكماً قابلاً الشمول ، ابتداء من الاختبار . ولذلك ، فإن وقت ردّة الفعل يبدو انه ، في معظم الحالات ، غير قادر أن يقدّم نظرة سابقة على ما يمكن أن يكون مسلك الشخص في وضع مستقبل . وفي ظروف ، توفـّر الادعاء بأن هذا المسلك المستقبَل سيكون متصلاً ، بصورة محدودة تماماً ، بإحدى خصائص الشخص المختبر الأصيلة الثابتة (ما يبقى للتوضيح ،

---

(١) بنـاء على مقارنة معدّلات نتجت عن ثلاثين قيمة تقريباً لكل إنسان مختبر .

سنعود إليه) ، ومن الواضح ان هذه الخاصة الأصيلة الثابتة ، هذه الردّة الفعل الخاصة الفردية لا تظهر بصورة واضحة في النتيجة العدديّة التي يعطيها امتحان وقت ردّة الفعل .

مرة أخرى نقول : ان وقت ردّة الفعل البسيط ليس ذرّةً من المسلك ، انه مسلك في كل غناه . إذن ، لقد سقطت محاولة تفكيك الواقع الانساني الى عناصره . ولنا كثير من الأمثلة المأخوذة عن الحياة العادية التي تستطيع أن تكون موضوعة قدّامنا لتكون دليلاً يشير الى أي حد قُدّر ، لتجارب التبسيط الجارية على الحوادث البشرية ، أن تنتهي الى إفسادات تهدم ما كانت تدّعي بلوغه من البناء . ولنفكر في كل التبسيطات المتطرفة التي أدخلها الحمق البسيط في أحكام الغير ؛ وهذه التبسيطات تهيج سخطنا بقدر ما تفقر أفعالنا ، ونوايانا ، وإراداتنا التي تجاهلها الاستمزاج فلم يؤخذ بها . وكان يجب هنا أن نقاضي الاستدلال العقلي المتخلّق بالعوائد ، والمحادثة الركيكة ، والثرثرات ، والاغتياب العادي . ومَن من الناس لم يتألم أمام والديه ، ومعلميه ، وضباطه ، ورجل الشرطة أو الجابي ؟

ولكننا سنكون أشد تمسكاً بالعلم نفسه . لأن مسلك الكائن البشري يرفض أن يترك ذاته تتجزأ ، فيمكن أن نحاول

عزل مسالك كاملة محدَّدة تماماً، مسالك نقية نوعاً ما . وتقودنا هذه الملاحظة الى الدخول في امتحان سريع ، سريع جـداً ، يتناول الاختبار الأساسي الذي أجراه بافلوف على ردّة الفعل[1] المتأقلمة .

مَن لم يسمع كلاماً على كلب بافلوف ؟ هذا الاختبار ، الذي ولـَّد تياراً من الأبحاث التطبيقية خصباً للغاية ، هو ، في جانب منه ، غير مفهوم على حقيقته . والواقع ان نية بافلوف كانت واضحة تريد بلوغ وضع اختباري يكون فيه الجهاز العضوي مضمون الاستخدام في كليته (بينما مختبرو وقت ردّة الفعـــل البسيطة كانوا يبحثون لعزل الاتصال الآلي بين استقبال الصوت وحركة الابهام) ، لكن حيث الظروف خالصة لدرجة تتيح لنا بلوغ تجاوب بسيط بين الإثارات والانسان المختبر .

ان اختبار بافلوف ، الذي سبق كل اختبار آخر ، لم يُجره على إنسان بل على كلب ، ومع ذلك فقد كانت النتيجة الحاصلة مليئة بالتعليم . ويجب أن نتذكر ان عالِم الفيزيولوجيا كان يضع حيواناته المعدّة للاختبار في غرفـــة معزولة لينفي كل

(١) الأفضل أن يقـــال ردّة فعل متأقلمة ، والتعبير الروسي « الشحنة الصوتية » ليس له المعنى الذي ينسب اليه في الفرنسية .

الإثارات الطفيلية . كما كان قد انتقى ، للجـــانب المخصص من مختبره لهذا الاجراء ، تسمية « برج السكوت » ، حمـــلاً على المشابهة بينه وبين الأبراج ، التي كان تلاميذ زرادشت يعرضون فيها موتاهم للشمس . إذاً كانت الفكرة القائلة أن نفرض ، على جهاز عضوي كامل ، وضعاً مؤلفاً من عناصر بسيطة : الإثارتان المشاركة - صوت الجرس ، وطعم قطعة اللحم الموضوعة في فم الحيوان . والأب غراسّيه ، الذي اشتغل في مختبر بافلوف بعد الحرب العالمية الأولى ، يشك ، مع ذلك ، في ان الوضع كان مبسطاً حقيقة . وهذا الشك ناتج عن ان الكلب يعيش الاختبار مع تحصيله السابق ، وينسب الى أغراض الوضع مغازي لا يمكن حذفها . ويقص المروّض كيف كانت الأشياء تأخذ مكانها حين إجراء الاختبار على الكلاب . وكان بافلوف ، الذي استقبل مساعديه وشرح لهم برنامج اختباره ، يشير الى خـــادم المختبر آمراً بإدخال الحيوان الذي كان ينتظر خلف الباب . وما إن يدخل الكلب حتى يتعرف المروّض الذي كان يحبه حباً صادقاً ، ويثب نحوه ليداعبه دعاب مودة . وبعـــد أن يصافح سيده ويعرب له عن فرحته بقبوله الى جانبه ، يعدو نحو طـــاولة الاختبار ، ثم يقفز فوقها ملقيـــاً بقوائمه الى الأحزمة المعدّة

لتركُّزه ، وعندما تبتدىء اللعبة ، يأخذ الكلب في إرسال لعابه المتحلب .

لكن القول ان الوضع كان خالصاً هو ، على الأقلّ ، موضع شك . والواقع يقتضي ، لإزالة هذا الشك ، أن نعمد الى استعمال عدد من الحيل مع الكلب لكي نخدع تيقظه ، فنحصل على حوادث بادية البساطة معه ؛ فندسّ ، مثلاً ، قطعة اللحم دون أن نُريها الكلب ، ودون أن يشتمّها (وهذا صعب للغاية ، لما هو معروف من دقة الشم عند الكلاب) ، ونغيِّر في ما ائتلف من العرض الذي تعوده بمهارة مدهشة ، الخ . والحقيقة انه لم يكن ممكناً ، في نظر الأب غراسّيه ، أن نحصل على وضع مبسط مع حيوانات عليا . ولقد كانت المسألة قد تعقدت قبلاً مع الأسماك . فالأوضاع المتأقلمة نظرياً يقتضي للحصول عليها ، بصورة جدية ، استخدام أجهزة عضوية حية تصنَّف في أسفل السلَّم التطورية ، لكي تجيء مرضية ، كبعض الديدان مثلاً . ولكن يجب أن نلاحظ ان الوضع البسيط ، بالنسبة الى هذه المخلوقات ، هو وضع الحياة العادي الكامل ، وان بساطة تنظيمهم العصبي لا تتيح اختيار النتيجة إلا عن وضع يتألف من عناصر بسيطة كائنة في متناولها . أما الوضع العادي بالنسبة الى تنظيم عصبي معقد ، فهو على العكس ، إذ انها تشتمل عند

استخدامها على عدد كبير من الجوانب المعقدة . فتبسيط الوضع، ان نحن قدرنا على إحداثه بتحيُّلات عملية دقيقة ، يصبح صنع حياة في وضع غير عادي . وليس في الوجود ما هو أقل ضماناً وصحة من الافتراض المتمثل في التفكير القائـــل بأن درس الإثارات وتجاوبها والكائن المختبر ، في وضع غير عادي ، يصبح ذا مغزى بالنسبة الى درسها في وضع عادي مُعاش .

هذه الوقائع ، المختارة من بين وقائع أخرى كثيرة لمغزاها ، توضح بسهولة لماذا كان صعباً للغـــاية تحقيق اختبارات شديدة الانضباط العلمي روعي فيها التأقلم الاختباري، تتناول مواضيعها تاماً . والاختبارات القليلة من هذا النوع التي لهـا بعض القيمة تتناول ردّات فعل صميمية بسيطة ، مثل رفـّة العين . نضيف الى هذا ان الحوادث المراقبة هي ، في الغالب ، ذات رجرجة كبيرة، فيجب أن تكون « مأخوذة على الطائر» في هنيهـــات هاربة .

وفي سنة ١٩٢٠ ، أصيبت مدينة لينينغراد ، حيث كانت مختبرات بافلوف ، فذهبت هذه ضحية فيضانات هائلة . وقـد أُخرجت معدّات العـــالم بسرعة خاطفة ، وأُنقذ الكلاب على زوارق في مجرى عمليات طوارىء مأساية نسبياً . على كل حال مأساية بالنسبة الى الكلاب ، دون شك ، لأنها ، بعد أن زلزلتها

مأساة الفيضانات ، رفضت ، في الأشهر التالية ، رفضاً هائلاً أن تلعب مجدداً دورها في قبول التــأقلم الاختباري . وأفضل من هذا ، ان ذكرى الفيضانات بقيت ماثلة حية في تلك الكلاب ، حتى انه كان يكفي أن يحدث دوي رعد أو خرخرة ماء هابط في المكان المحاذي لوجارها، حتى تراها تضطرب وتعوي كما لو كانت في خطر جديد . لذلك وجب أن تمرّ بهذه الكلاب أشهر كثيرة تغمرها خلالها العناية الرفيقة ، والكلمات المهدّئة ، والدعابات اللطيفة ، ويقدّم لها طعامها في حضور المروّض ، حتى تستعيد هدوءها فتقبل مجدّداً أحزمة الاختبار . وعندما أمّن بافلوف للحيوان المختبر هذه المعاملة قال : إن الإثارة « حضور مُجري الاختبار » قد أعادت للكلب وعيــه بعد ذهوله . وهكذا نستطيع ، حقاً ، أن نستخدم لغة كهذه لكي نحلــل التهدئة المطردة التي أحدثتها في الكلب المعاملة الحسنة وهذه العلاقات الوثيقة الصادقة بينه وبين سيده ، وهي علاقات عرفهـا الناس وكلابهم منذ آلاف السنين . ولكن ، في عرفنا ان الخلط بـين صيغة تعبير وتغيير تبسيطي في الوضع ، أمر قليل الحظ من الصحة ، ولا يعدو كونه خداعاً أو تمويهاً تعبيرياً . واذا كان هنــا من تبسيط ، فيظهر واضحاً انه ليس أكثر من مستوى شفوي .

والأسلوب التعبيري الذي استعمله بافلوف نفسه يمكن أن

يُستخدم للإعراب عن غنى الاختبار الذي يهيء التأقلم . ونحن نعرف ، حقاً ، ان الكلب لا يتحلب لعابه عندما يتذوق اللحم فقط ، ولكنه يتحلب أيضاً عندما يسمع الجرس ، ولذا فإن الصوت ، كما يقول بافلوف ، قد صار ، بالنسبة الى الكلب ، الاشارة الى اللحم . فهل تبقى حاجة لإطالة التوضيح لنرى ان بافلوف نفسه هو الذي أدخل أسلوب التعبير الأدائي ؟ وقد رأينا ، في ما تقدم الصلات اللغوية للمركّب : إشارة — دمغة ، أداء .

وانه لمن المدهش ان عامة الناس أصيبوا بمثل انقلاب في مفاهيمهم بسبب اختبار بافلوف ، الذي استحضر عالماً مُرعباً من آلية الحياة ، بدلاً من أن يصلها مباشرة بحياته الخاصة . فالصّلات ، بين تحلب اللعاب الذي يحصل في فمنا وأساليب الاعلان عن وصول الأطعمة الشهية ، لا تحصى في اختبارنا طيّبات المآكل. والمهتمون بهذه الطيّبات من المهرة، يعرفون ان يهيئوا الأكلة بواسطة تقنيات اختُبرت طويلاً ، ويعمد بعض الموهوبين منهم ، دون انقطاع ، الى تجديدها ، بما لهم من طاقة مخترعة . فالمائدة ، والمهيئات الدقيقة ، وتقديم الأطعمة ، كل هذه تضع المقبلين على الغذاء في وضع انتظار لا بد منه لحسن التذوق . كما انه ، بوجه خاص ، لا بد من تحلب لعابي خفيف

يساعد على جودة ابتلاع ما ُقدّم للأكل . ولنتذكر ان من جفّ فمه ، مثلاً ، في حالة توتّر سيكولوجي ، يصعب عليه جداً أن يأكل أي مأكل . وما أقل الذين يُدخل الغذاء في أفواههم دون أن يكونوا قد أُشعروا بذلك بصورة ما ؛ ولكن ليس من شك في ان هذا يعتبر وضعاً غير مرضٍ ، ومناقضاً ، حقاً ، لتقدير طعم المآكل ، حتى انه مغاير لتناول الطعام في أبسط الوجوه . تعود الى ذاكرتنا حكاية مكتشف قطبي ، جرت منـــذ بعض سنوات ، إذ عاش أشهراً كثيرة في كوخ دون ضوء . فهو يروي كم كان يعاني من الاشمئزاز الذي سيطر عليه لتناوله طعــامه في الظلمة ، دون أن يعرف تماماً ما كان يحمل الى فمه . ولقد كان دائماً ينتظر أقبح . وعلى الرغم من التعليمات التي كان يمكن أن يحصل عليها ، بتلمسه المواد التي كانت في احتياطه وبشمّها ، فقد كان يحدث له ، من وقت الى آخر ، أن يضع في فمه أشياء غير صالحة للأكل . فكان أن سمم له هذا الحادث كل أوقـــات طعامه ، حتى انتهى الى تعذيبه ، فصار تناول الطعام ، بالنسبة إليه ، شغلاً شاقاً . والجدير بالذكر أن نلاحظ أنه ، في حكايته، كان يُعير مسألة أكله ، دون أن يعرف ماذا سيأكل ، أهميـــة تغطي كل مظاهر اختباره الأخرى ، مع ان هذه كانت غنيـــة بالمناسبات والمفاجآت .

والآن ، وقد ملأنا صفحتين كبيرتين بالكلام على « الأكل »، فقد يكون القارىء لاحظ – ولو قليلاً – ان الساعة قد دنت فيتحلب ريقه دون أن يفكر فيه ... انه حادث سيكوفيزيولوجي عادي ، مقترن بالصور الذهنية التي تنمو في داخلنا على نداء الوصف . وفي الحقيقة ، لا شيء أبسط من العلاقات بين تحلب الريق والدمغات التي تدل على الأكل ؛ إذ لا شيء أعقد منها ، ولا أغنى بالأداءات المتصلة بكل تجربتنا ، وبكل حاجاتنا ، وبكل أذواقنا ، ولا شيء أكثر منها وضعاً لكل ثقافتنا موضع العمل ، ولا لكل شخصيتنا .

غير أننا لا نريد بهذا الذي قلناه أن ننتهي بالقارىء الى التفكير في انه ليس لاختبار ردّة الفعل المتأقلمة أي تعليم نستخلصه منه . ولا في اننا ننوي أن نصدر أية إدانة للتأقلم ، إدانة من نوع «لنرفض باشمئزاز هذه الأخطاء التي تجعل الانسان آلة ، إذ تردّه الى صف الأدوات التلقائية (الأوتوماتيكية) » . إن الفكرة التي نعبّر عنها هي نقيض هذا التفسير. انها تقوم على أن نحفظ أن الكلب بـ « فهمه » في اختبار تحلب اللعاب عند اعلان الغذاء ، يبدو مثلاً أخاذاً لحادث حيوي في الكشف عن وضع بواسطة جهاز عضوي حي يملك جهازاً عصبياً مركباً . فالكلب ، هنا ، حيوان مفكر يبحث عن معرفة : متى

ستُعطى له قطعة اللحم التي ينتظرها ، والتي هو محتاج إليها ؟ لذلك فهو يستخدم كل مصادر قدرتـه على المشاركة المجتمعية ليجعل من « تعبير » الجرس شيئاً من لغته ، وليجد لهذا التعبير مؤداه . وواقـع ان الجرس يؤلف تعبيراً يستجيب له الكلب بلعابه [1] هو بالضبط واقع يُستخدم في حالات كثيرة للاتصال بالكلب . وتعتبر ، اليوم ، الاتاحة لحوار مع الحيوان احدى الفوائد الأساسية لردّة الفعل المتأقلمة ، إذ يكون حواراً لا خطر مفاجئاً فيه ، حواراً يستطيـع فيه الحيوان أن يقول كلمته ، إذا صح لنا هذا القول . وبفضل هذه الوسيلة يمكن أن نكتشف كل كون الكلب الحسي والعقلي ، كأن نكلفه ، مثلاً ، حل بعض المسائل التي هي في متناوله .

ولكن الذي يعنينا هنا هو محاولة تبسيط وضـع بردّه الى عناصره . واذا اتضح ان الاختبار لا يكشف عن ذرّة ابتدائية من الوضع ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون الاختبار مضيئـاً عندما نبحث عن أن نفهمه وأن نستخلص منه تعاليم .

لقد كان اختبار بافلوف الذي أجراه على الكلاب ، الأول من

---

(١) في اختبارات أخرى يستجيب بشكل آخر ، برفعه قـائمته ، أو بتوكؤه على مرتكزات ، الخ .

نوعه . وتعليقاً عليه قلنا : ان تطبيق هذه التقنيات على الكائن البشري يفرض طرح عدد من المسائل التي تحدُّ من استعماله . ولنذكّر ، لأجل التذكير فقط ، ان جدية التنشئة لأمهات المستقبل ، بالنظر الى تخفيف آلام الولادة ، التي تستعمل ، في موضوعها ، كلمة الخروج من التأقلم فيأتي استعماله ، في الغالب ، سطحياً ، هي تقنية دقيقة ومعقدة ، وليس لها بالاختبار الأول الذي قام بافلوف سوى علاقات بعيدة .

وبما ان تحليل الوقائع الانسانية كانت نتيجته أن يستخلص منها انسانيتها ، والعلم ، وهو المؤتمن على إحدى الدعوات الذاتية لهذه الوقائع ، ولعلها أكثرها استمراراً ، راح يبحث عن طريقة تتناول معطيات الكائن البشري دون أن تغير لها طبيعتها – أو على الأصح ، ولكي نكون أكثر تشدداً – دون أن تخرجها عن انسانيتها . ولهذا ، كان من واجب العلم ان يأخذ هذه الوقائع باعتبارها مجملاً لا يتجزأ ، ومجموعات مستوفية البنية « مهيكلة » . وهكذا فان العلم ، دون شك ، رفض أحد أشكاله النقلية ، التحليل ، ولكنه بقي أميناً لروحه ؛ والحقيقة ان هذا هو الأمر الأكثر أهمية . وعلينا ان نلاحظ ، من جهة أخرى ، ان أي علم من علوم التحليل لا يعرف كيف يتخلص من المنطق الاطرادي المكمل، وان الطريقة

التي تتشوّف الى تفهم مجملات كاملة ومعقدة ، لن تستطيع أن تتخلص من تصرف تحليلي ، ولو في صيغة عرضٍ .

ولكن لنأت من ذلك الى مبدإ المجمل المستوفي البنية[1] ، والى فكرة البنية والى استخدامها في معرفة الوقائع في العلوم الانسانية .

الوقائع الانسانية هي مجملات مستوفية البنية « مهيكلة » ؛ هي أبنية فيها تُرتّب العناصر ، وتؤلف ، وتنظم في صورة ما ، الى درجة انها لا تستطاع معرفة المجمل عند الاكتفاء بتعداد عناصره ، ولا عند معرفة أجزائه معرفة بسيطة . لأن ترتيب العناصر ، أي كيفية وجود العلاقات بينها ، هو بنسبة ما يمكن أن تكونه المادة التي صنع منها الواقع الانساني . فلنقل بكل صراحة مـــا هي البنية « الهيكل » ، هي أولاً طريقة تنظيم العلاقات بين الأجزاء . إن كلمة مهيكل ومبني ، وما يماثلها في الأبنية المتمثلة في البيوت ، والقصور ، والمعابد تُري بوضوح ان المادة التي منها صنعت هذه الأبنية لا تعطيها ، قطعاً ، ذاتها . فالكاتدرائية – الكنيسة الرعوية – ليست كومة من اللبنات ، وانما هي ترتيب هذه اللبنات في كاتدرائية .

(١) ليس هناك أي مؤدى مشترك بين هذا الفكرة للمجمل المستوفي البنية ومبدأ المجمل في الرياضيات الحديثة : مجموعة أغراض متشاركة .

ومن الواضح ان بناءً أقمناه ، وبقي محتاجاً الى عنصر واحد ، ليس البناء الذي أردناه ، لأنه إذا كان ما نحتاجه حجراً فقد يكون عقدة القبة ، وعندئذ البناء لا وجود له . كل شيء في البنية له مكانه وله مساهمته في المجمل . وكل العناصر لها فائدة ، ولكن البنية في ذاتها هي أكثر من مجموع العناصر . وقد أخذت هذه المبادىء في أن تصبح مألوفة في الأفكار . ثم إنها ولّدت تياراً ثقافياً وفلسفياً يكثر التحدث عنه منذ سنة ١٩٦٠ .

البنيوية تتميز ، أولاً ، بتنوع الصيغ التحديدية التي تقدمها تبعاً للمؤلفين . ولقد أدت الى توسعات وخلاصات ذات فائدة كبيرة ، ولكن كل الآراء لا تتلاقى على نقطة واحدة . فالتوسع في طبيعة البنية ، ومسألة معرفة ما إذا كانت البنية حقيقية أو أو انها لم تكن سوى تفوّق بنيوي لحقيقة أخرى ، هذه كلها كانت ، بشكل خاص ، مادة مناقشات الاختصاصيين . وما يجب ان يلفت انتباهنا ، هنا ، هو وصف الفكرة المشتركة بين كل التوسعات قبل ان يلفته درس مختلف الماورائيات الجاعل من الواقع الانساني وظيفة منظمة مجملة تستند الى قواعد رياضية : عارفين ان هذا الدليل الفكري ، وهذه المسلكية الروحية التي تعني أن نأخذ بعين الاعتبار وقائع انسانية كبنيات يجب ان

تفهم في حقيقتها الجملة ، والمنظـَّمة، والتي لا نستطيع تجزئتها ، ولا تفكيكها ، دون أن نخربها .

وما يجب أن نقوله هو ان تفكيرنا ليس فوري الكينونة في متناول المبدإ البنيوي . فهل هي طبيعة عميقة ، أم هل هي تنشئة – إنه سؤال يشغل المشتغلين في البنيوية – ، وهذا الشيء هنا قليل الأهمية . ولكن يجب أن نحمل انتباهنا على الصعوبة القصوى التي تلاقيها أفكارنا في تفهُّم مجموعة في نظامها الشامل الحيّ . فيجب ، إذاً، ان ننشّىء تفكيرنا إن كنا نريد ان نصل الى معرفة بنية الواقع الانساني . ومبدأ التفاعل العملي المتبادل هو مدخل نافع الى هذه التنشئة .

والتفاعل العملي المتبادل هو ذلك الذي يحصل في قلب مجمل مواضيع عندما يكون كل منها فاعلاً في الآخَر ، بينما هذه تفعل فيه [1] . وفي بنية التفاعل العملي المتبادل لا يمكن أن نعرف ما هو السبب ومـــا هو المسبب . إذ ان كلاً من الوقائع ، ومن المواضيع ، ومن الكائنات الابتدائية هو ، في الوقت نفسه ، سبب ومسبَّب . والمأثور الشعبي القائل بوجود دائرة رذليَّة

(١) وفي هذا المستوى من الانعكاس ، لا أهمية لعـــدد العلاقات قل أو كثر .

يعطي فكرة صادقة عن التفاعل العملي المتبادل . ولنأخذ مثلاً لم يعد يجهله أحدٌ بعد اليوم : تعلمنا الطبابة أنها توجد أمراض نفسية – جسدية ، يعني أمراضاً فيها علاقات قائمة بين ما هو جسدي وما هو معنوي : فالوعكة المعنوية ، تثير وعكة جسدية ، وهذا التوعُّك يجرُّ ألماً يضعف الجسد ، اجتماعياً أو مهنياً ، وهذا الضعف يسبب الاضطرابات السيكولوجية عند حامل الألم المضعف . وهذه الاضطرابات لها نتائج فيزيولوجية ، الخ . وما هو جدير بالملاحظة ، وعظيم الأثر في النتائج العملية ، هو ان الشرح يمكن ان يبدأ في نقطة أخرى من حلقة العلاقات هذه المعروفة بتفاعل السبب والنتيجة . واليكم مثلاً يناقض الشرح السابق ، إذ يمكن أن تؤخذ نقطة الانطلاق في الاضطراب الفيزيولوجي ، أو كما يقول الشرح المبسّط ، السببُ الأول . فأمام تحلُّق علاقات من هذا النوع يصاب الفكر بحالة من الاجهاد إن هو أراد السيطرة على الوقائع . والمناقشة المتكررة ، دون جدوى ، بين دعاة السبب المعنوي ودعاة السبب الفيزيولوجي تُظهر جيداً أن فكرة ، في صيغة عمل بسيط مطرد المنطق ، لا تنتهي الى أية نتيجة ايجابية . ومع ذلك فليست الفائدة النظرية والمنطقية وحدها قائمة في أن نكشف كشفاً مصيباً عن هذه النتيجة ، ولكن مع فائدة

الفكرة العملية في صيغتها البنيوية المحلّقة ، والمتفاعلة في تبادل عملي ، ومع قلة الاكتراث بالمشاحنة التي تحدثنا عنها . ولكي نحاول ان نؤثر على الوضع ، ولكي نحاول هنا أن نشفي ، يمكننا أن نهـــاجم هذا أو ذاك من الأصعدة . فالمهم أن نحطم الحلقة ، والحق يقال : ان الفكرة المستقيمة كانت تنجح ، بعد جهد ، لأننا ، عندما نقرر ، عن إرادة مستقلة ، ان السبب كان في أحد الأصعدة ، لم يكن في ذلك ما يقلل من عملنا . أجل : لقد كان مثلنا بسيطاً ، وذلك لأسباب تربوية ، نرجو القارىء أن يعذرنا عليها. ولكن يجب أن نحاول السير، خطوة فخطوة، على صعيد لا تظهر عليه الحقيقة كاملة إلا في آخر الشوط ؛ وفي هـــذا مغايرة أساسية تتناول علاقة تحليل المنطق الاطرادي ، والفكرة البنيوية التي أشرنا إليها سابقاً ، والتي هي أحد مفاتيح الصعوبة . وهوذا نحن نقول ، دون إلحاح ، ان فائدة الفكرة البنيوية ، في الحلقة الفيزيولوجية – المعنوية ، هي في أن تُظهر، مثلاً ، ان العمل ممكن على الجانبين المتصلين ، في وقت واحد ، وهذا ما يفعله ممارس مهنته . وهكذا أصبحت المعالجة بالطرق السيكولوجية تقوّي فعالية الدواء بما تحدثه من تخفيف الآلام الجسدية بفعل التعزية النفسية . وهذا ، على الأقل ، كسبٌ في الوقت ؛ فالحياة تبدو قصيرة إن هي كانت محمية من الألم !

ولكن الفكرة البنيوية في الحقيقة لا تحتاج الى تأكيد أنها ذات نجوع علمي ، ونجوع عملي أكبر بكثير . والتفاعل العملي المتبادل يلفت انتباهنا بصورة مفيدة . وبما ان الأشياء ، في الوقائع الانسانية ، متصل بعضها بالبعض الآخر بالتبادل ، فكل عمل على قسم منها يُحدث ردّة فعل على الأقسام الأخرى. وهذه الأعمال يمكن أن تحدث على مسافات طويلة ، فينتج عن هذا إمكان عودة هذه الأشواط نحو نقطة الانطلاق ، إما لتقوية العمل وإما ، على العكس ، لمعاكستها . والشعور الهائل الناتج عن انعكاس التأثير على المؤثر معروف كفاية فلا يحتاج الى شرح. وهكذا يجد كل امرىء في اختباره ما يدعوه الى التفكير في هذه الردّات التأثيرية البعيدة ، والتي تؤلف حجر عثرة كل الأوضاع التي يكون فيها التفاعل العملي المتبادل هاماً . وكل وضع توجد فيه حياة ، ويوجد فيه أشخاص أيضاً أكثر ، مع ضمائرهم ، نجرؤ على القول في وصفه ، انه وضعٌ محشوّ بالتفاعل العملي المتبادل .

ولكي نجسد هذه الفِكَر ، ننتقي بعض الأمثلة اتفاقاً . فالطبابة ، كما نعيشها كلنا كأننا قيد المعالجة ، هي في تصرفنا لنرسم بها صورة الفكرة البنيوية للتفاعل العملي المتبادل . هوذا شخص مريض . يجب أن نعتني به بوسائل مكمّلة (يجب أن

نستخدم هذه الوسائل) . ولذلك فإننـــا نـُدخله مستشفى ؛ فيكون بعيداً عن ذويه ، بين مرضى آخرين ، بينهم محتضرون. فالمريض « معتنى به » حقاً . وها هي المسابر تتحرى أعضاءه ، وأجهزة الاذاعة تنوّمه على رؤية الصور التي تستعرض لعينه مليئة بالمعلومات المفيدة ، والأدوية تخترق بسوائلهـا المطهرة جسمه الى مقعَّرات أعضائه ، ويُعطى المنعشات ، ومعيدات النظام ، والمسهّلات . . . ولكن المريض ييأس ويصيبه استرخاء ، يعيق شفاءه ؛ مع انه كان ذا بنية فيزيولوجية – سيكولوجية. ومعرفة هذه البنية دليل يقود الى تقرير عملي أنجع في ما يتعلق بالغاية المتوخاة : الشفاء .

السوسيولوجيا ، والاقتصاد ، والسياسة منابع أوضاع لا تحصى ، فيهـا نجد بنيات تفاعل عملي متبادل . ففي الاقتصاد تظهر دائمـاً حلقة التوفير والانفاق في سير التوسع الاقتصادي (والاقتصاد مستعمل هنـا في معناه العام : يتناول الانتاج وتوزيع الخيرات العامة) . فيجب على المستهلك أن ينفق لتسيير عجلة الانتاج ، ولكن يجب أيضاً أن يقتصد مساهمة في رأس المال الانتاجي . هذه بنية محلـّقة يُفلت تفهمها من العامة التي تسيء فهم هذه اللماذا على الصفحة الاقتصادية من يومياته ،

لأنهـــا تارة تتطلّب الاستهلاك وأخرى تتطلّب الاقتصاد (بالضرائب أو بالمساهمة في القروض) .

كل جماعة من البشر تؤلف وسطاً ذا بنية من التفاعل العملي المتبادل . والأشخاص الذين يقومون بدور القيادة في الجماعة أو بدور المنبّه المنشّط يعلمون جيداً ان كل تدخل ، وكل كلمة ، وكل فعل له ما لا يحصى من النتائج المؤثرة ، بدورها ، كأسباب فاعلة في حياة الجماعة ، وفي حياة كل عضو من أعضائها . ولذلك كان فن الزعماء الكبار يقتضيهم أن يجدوا الأعمال المنتجة ، وبالتالي تلك التي تبدو في أساس كل تقدم . وهنـــاك ، على العكس ، بعض أعمال لها باستمرار نتائج كارثية ، وهذه النتائج تنتهي بأن تؤدي الى أوضاع تبدو فيهـا التعاسة كقدر مشؤوم لا يكتشف سبب من أسبابه .

ان مكان بنية التفاعل العملي المتبـادل ، على سُلّم السيكولوجيا الشخصية ، مكان الدليل القوي المنير لنفهم مثلاً ، تكافؤ المواهب والكفايات . ومَن ينجح ، وهو بليد الذهن ، فنجاحه ثمرة جهده ومثابرته . ولقد كان نجاح ضعيفي المواهب وما يزال ، حدثاً يلفت النظر بعموميته . وبفضل احصائيات شركات التـــأمين ، أصبح اليوم معلوماً حق العلم ان سائقي السيارات الذين تجاوزا عمر الشباب ، هم مع ذلك ، وعلى الرغم

من خسارتهم الثابتة سرعة الشحنات الحسية الابتدائية ، أقل حوادث اصطدام من السائقين الفتيان ، مع ان هؤلاء ، إحصائياً ، يملكون تجهيزاً حسياً ـ حركياً من أفضل نوع . وتبعاً للقاعدة العامة ، نرى الأشخاص ذوي الخبرة في حدود وسائلهم يعتمدون موقف الجهد ، والرصانة ، والثبات الذي يبدو ، غالباً ، أنجع من المهارة والمرونة الجسدية والذهنية . وهوذا نحن نلاقي ، هنا ، مسألة الأرنب والسلحفاة ، المسألة التي رافقت الزمان؛ مع انه يستطاع النجاح في الرهان نفسه بطرق مختلفة، وباللجوء الى وسائل مختلفة . ولقد وضع فرنسوا غوشيه موضع البروز والاثبات بُعدَي « الدور » و « الانشاء » في نشاط ما . فالدور نفسه (وظيفة ، مهنة ، دور مأسوي) يمكن أن نقوم به باستعمال ألوان متعددة من الانشاء . ولذلك فإن الشخصيات المتباينة كثيراً ما تستطيع أن تنجح في دور واحد ، إذ ليس ضرورياً أن تُسحق الشخصيات تحت ثقل الدور .

وحادث التعويض يلقي ضوءاً كاشفاً على مظهر هام للبنية التي لم نمتحنها بعد. فلقد قلنا ان البنية مجموعة قيمتها في تنظيمها، وهي ، كما علمنا ، أكثر من مجموع عناصرها . وهذا القول يعني أولاً ان العنصر بعد أن يُدخل في البنية يصير شيئاً آخر غير

ذاته منفرداً . وكتحليل أول ، ينتج منه ان إدخال عنصر في بنية أو إخراجه منها ، هو أكثر من تدخل جزئي ، وشيء آخر غير نقـل جزء ؛ فكل البنية يمكن أن تتزلزل من التدخل أو النقل . وفي تمثـُّل صورة عقدة القبة — مفتاحها — من قنطرة معمارية مـــا يفهم دور الجزء هذا على مستوى المجموع المبني . ولكن الفرق في الطبيعة بين العناصر والمجموع يمثل أيضاً مظهراً آخر ، وهو المشهد الذي ظهر لنا في الفقرة السابقة . ثم إننا نستطيـع بناء بنيتين متعادلتين بعناصر مختلفة . أو اننا نقدر على إعادة بناء بنية بعناصر أخرى . إذاً، البنية تابعة عناصرها ومستقلة عنها . فتابعة في حـــالة ان تغييراً صغيراً جداً ، في ظاهرة ، يطرأ عليها يزلزلها كلها ، ومستقلة لأنها تستطيـع أن تستعيد شكلها مبنية من عناصر أخرى إستخدمت في بنائها . وما هو حق أيضاً ان في صورة البناء المعماري تفاصيل لا أهمية لها ، والتي يتساوى غيابها ووجودها من حيث القيمة الاساسية للمجمل . ويصح القول عامة أن هذه التفاصيل ليست جزءاً من البنية . وهذا الحوار ضروري لفهم هذا المسلسل التوسعي في اعادة بناء مجمـــل عندما يتعرض لفقدان عنصر من عناصره المبنية . ان نظام التعويض : إعادة بناء مسلك مجمل من عناصر

أخرى ، المهيأ على مستوى بنيات القشرة الدماغية العصبية [1] ، هو نظام على سعة من التطبيق في أعمال الشخص . ولقد كان من الأجدى ، على صعيد الامتحانات الجامعية والسيكولوجية ، لو انها جـــاءت مستوحاة من قانون التعويض . ولنشر إشارة عابرة الى ان هذا القانون يدين الطريقة المعروفة بالخطـــوط المنحنية السيكولوجية التي أثير موضوعها منذ زمن طويل .

ان الأمثلة التي اخترناها لنصور مبدأ البنية تناولت ، في الغالب ، بنيات ذات بعدين ، وبنيات ذات عنصرين على تراوح من التناقض . غير ان معالجة بنيات ذات عدد أكبر من الأبعاد تفرض ذاتها غالباً . وفي السيكولوجيا الفردية ، أصبح استخدام إضمامات الاربعة أو الخمسة عناصر أو أكثر في المسألة الواحدة ، شيئاً عادياً . أما في الاقتصاد ، فهناك غـــابة حقيقية ، من العناصر ، في الغـــالب ، تواجهنا لنعمل فيها . وهكذا يعاني الفكر مصاعب أكثر بقدر مـــا تزداد صعوبة تحركه في قلب

(١) ان الاضرار اللاحقة مناطق التجمع يمكن أن يجيز وجودها المرضى الذين أعيد بناء إمكاناتهم بخلايا تتخذ دور الخـــلايا التي تعطلت . ويجب ان نعترف في مجال الرد بالمثل ان المناطق الحسية والحركية تبدي قدراً قليلاً جداً من التبدل السيكولوجي . وكقاعدة عامة ، يلعب التعويض دوره بصورة أفضل عندما نتناول بالعمل مسالك أكثر تعقداً .

فكرات يصعب اخراجها الى عالم الحس". ولكن الحق يقال: انه لا يمكن أن نخرج الى عالم الحس أكثر من أربعة عناصر، معتمدين استيحاء الاخراج من موضوعات حسية ماثلة لنظرنا[1]. وعندئذ تبدو وساطة القواعد الرياضية مفيدة.

سيلاحظ القارىء اننا في الأمثلة المختارة، وبالإلماع الى الحوادث الاقتصادية، بشكل بارز، لم نفصل قط الشخص عن الوضع، وعن البيئة، وبشكل خاص، عن المجتمع. وهوذا نحن أمام فكرة مركزة تركيزاً متيناً تقول : لا شخص انسانياً خارج المجتمع الانساني. وهذه الخلاصة، التي تصطدم أحياناً كثيرة بالفردية التي أسيء فهمها، وهي بحق مدينة للنقطة المتقدمة الذكر في مبدإ البنية. فكل شخص في علاقات تفاعل عملي متبادل مع محيطه. وهذا المبدأ هو احدى فتوحات الفكر القوية المتينة. والشخص تحت تأثير المجتمع الذي يصنعه. وليس المجال هنا بمنفسح للبحث عن حل هذه المسألة القائمة على خطأ، وهي : هل الانسان حصيلة المجتمع أم ان المجتمع خلق الانسان؟ من الواضح للنظر أننا مدينون للمجتمع، الذي من دونه لا نكون، على حد قول جان إيتار إلا « أفقر الحيوانات وأكثرها

---

١ – الأبعاد المكانية الثلاثة تضاف اليها الحصة الزمنية.

حاجة الى كل شيء » . وانه من الواضح أيضاً اننا نصنع المجتمع بأفعالنـــا ، وبمشاريعنا ، وبتوقنا ، وبأخطائنا ، وبفكرنا وإرادتنا . وهكذا فان الفكرة في صيغة البنية تلقي ضوءاً على أجوبة أحد الاسئلة التي طرحناها في أول هذا الكتاب .

ان بول فريس[1] في تمنيه الرئاسي للجمعية السيكولوجية سنة ١٩٦٢ ، عرض صورة « لسيكولوجيا كاملة » . ففي عرضه مجدداً تاريخ العلم في السيكولوجيا أوضح أنه، ابتداءً من المخطط المتناول نظامية العلاقات بين الإثارات ، شرع معظم علمـــاء النفس المعاصرين في إقرار الحاجة الى إغناء النموذج التعبيري بادخالهم فيه عنصر الشخصية . والى هذا يضيف بول فريس : « بإدخالنا عنصر الشخصية ، نواجـــه هذا الدرس على كل المستويات ، من الفيزيولوجي الى استيفاء تمثيل ذاتنا بأنفسنا في الأنا . أما ردة الفعل الملحوظة ، فما هي وظيفة لوضع فقط ، ولكنها تترجم التفاعل العملي المتبادل » . وهكذا نكتفي بما أوضحه بول فريس بإدخاله البنية في المخطط الذي كان يريد ان يفلت منه .

---

(١) إقرأ له ، لدى منشورات عويدات ، كتاب علم النفس التجريبي – سلسلة زدني علماً – رقم ٧٢ .

٤

مصير الوقائع الانسانية

الغير كائن متغيّر . وعلى طريق إيفيز مسخ ذو تمثال نصفي جذاب يسأل المسافر المارّ به : ما هو هذا الكائن الذي يمشي صباحاً على قوائمه الأربع ، وظهراً على اثنتين ، ومساء على ثلاث ؟ هذا الكائن الذي يسهم في حركة الكون العامة حيث يتغير كل شيء ، وحيث ، كما يقول « البروفانسالي » : « كل شيء زائل ، وكل شيء مضجر ، وكل شيء مذهل » . ولقد كان هيرانليطس يقول: ان المرء لا يستحم أبداً مرتين في النهر ذاته . وليس بخاف على أي مطالع كم أفرط اليونان في الاستدلال العقلي بحثاً في قضايا التغيُّر والتحرك .

انها لحكمة قديمة تلك التي تراقب تغيرات الأشياء والأحياء . ولكنه جهد موغل في القِدم أيضاً، ذلك الجهد الذي بذله الفكر الفاعل ، والفكر القائد المرشد في العمل ، بحثاً عن نقاط مستقرة في هذه التحركات . وهكذا فان العلم حمل انتباهه الى

معرفة العناصر الثابتة في هذا الكون المتغير . حقاً ان المرء لا يستحم أبداً في الماء ذاته مرة ثانية ؛ ولكن نهراً له مميزات ، آمل أن أجدها ثانية محتوية البرودة ، والارتفاع ، وحيواناتها المائية المتلاحقة فيه ، يغريني بالاستحمام فيه مرات . وهكذا فإني استطيع اعتماده لأرتوي منه ، وأصطاد فيه ، وانقل اليه زوارقي .

إذن ، الغاية العملية (بالمعنى الكامل للكلمة) من كل معرفة تقودني الى البحث ، في ظاهر التغير ، عن المعطيات الثابتة ، التي تساعدني على استباق الرؤية الى عمل . ومع هذا الذي نبدي نصل ، هنا ، الى المسألة العامة ، التي خصها أ. رينيه بتسمية [1] الشوط المتحرك انطلاقاً من نقطة ثابتة .

هذا الحجل الفتي ، الماضي هرباً في طيران تبلغ سرعته ثمانين كيلومتراً في الساعة ، اذا سددت اليه بندقيتي في المكان الذي هو فيه عند انطلاق ناري ، فان خردقي سيمر خلفه . ولكنه يطير وفاقـــاً لشوط متحرك انطلاقاً من نقطة ثابتة ، ذي معطيات ثابتة (على الأقل مؤقتاً) تعينني على حساب استدق فيه ، لأعرف أين يكون الحجـــل بعد عُشر الثانية ، الذي يستغرقه رصاصي ليبلغ العلو الذي يطير فيه الطائر الطريد .

(١) بؤس العقل ، ١٩٦٦ .

فمن الحركة وجدت مــا يساعد على تحديد الشوط المتحرك انطلاقاً من نقطة ثابتة وقانون الانتقال على طول هذا الشوط تبعاً لتغير الوقت . مع ذلك يجب أن نلاحظ اذا كان الطائر الطريد دجاجة ماء تطير في تعرّج غير ملحوظ ، فانه يزيد في حظه للافلات من الخردق .

سنلاحظ ان الكشف عن المتغيرات الممكن قياسها ، والذي هو أحد هموم العلم الكبيرة ، يقوم في تحديد الشوط المتحرك وقانون الانتقال لهذه المتغيرات وقانون تطورها . إذن فالمتغير العلمي في حادثة هو العلاقة المحدودة في تغيُّر [1] ما . والأخــذ بهذا المتغير هو القول من أين يأتي هذا التغير والى أين يذهب . والقول الى أين يذهب تغيُّر ما هو ، بالضبط ، نزع ميزة التغير عنه ، لأن معرفة الانتهاء تقرّبه منا كحاضر . ومن يستطع ان يعرف مستقبل تغيُّر معرفة صحيحة يصبح الحاضر والمستقبل حضرة واحدة بالنسبة اليه . في هذا نجد مغايرة المعرفة في علاقاتها بالعمل عندما يكون الدور الأساسي لهذا العمل قد كان منسياً . وفي رؤيا منطقية ضيقة لعــالم يجهل الممارسة ، يعتبر

(١) أنظر الدراسات الملحوظة لصاحبها أ. رينيه ... خاصة الصفحات ٣ : وما يليها .

الكون جسماً بلورياً لا حدود له قائماً في بنيته حيث تبدو التحركات البشرية ضروباً من الأوهام المبهمة .

ولكي نستعيد رؤيا العـــالم التي تعرض ، بصورة أفضل ، الاختبار الذي عاشه اشخاص في العمل، يجب ان ندخل مبدأين أساسيين فيه . وبعد أن يصاغا في حدّيهما يبدوان في شبه لحقائق بسيطة ، لكن أكثر المفكـّرين يستدلون بعقولهم جاهلين عقلياً انهم يعيشون في الحقيقة .

– المبدأ الأول هو ان معرفة الاشياء والاحياء التي تحيط بنا تحرك فينا أعمـــالاً تستهدف تحسين وضعنا . وقد أصبحنا نسمي هذا الواقع « الممارسة » أخذاً بالتعبير الماركسي .

– المبدأ الثاني هو ان كل معرفة تتناول العالم توفر لنـــا ترجيحات مستقبلية . والمعرفة العلمية هي معرفة ترجيحية . فالتأكيد مفقود في غير المعرفة الواعية (ذات المعتقد والمعرفة المنطقية الواضحين والبارزي الصيغة) . ولكن ليس قصدنا معرفة العالم ، هذه المعرفة التي تستعمل دليلاً الى العمل [1] .

ومع ذلك ، فان الترجيحات ، التي منها صنعت معارفنا ، تتطور في الوقت الذي فيه ينمو بحثنا في المعرفة ، وتتسع نتائج

---

(١) أنظر درسنا الأصول في « اقتصاديات ومجتمعيات » ، رقم ١ ، كانون الثاني ١٩٦٧ ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

عملنا . إذاً ، معرفتي مختلفة في كل آونة عما كانت عليه ، في الآونة السابقة، وواقعة جزئياً تحت تأثير اعمال قمت بها سابقاً . والمعرفة العملية لا تضعنا في وسط كون مبلور ، بل تحيا معنا ، في الوقت نفسه ، الذي يحيا فيه العالم حولنا ، وهو عالم في قلبه تتسع مشاريعنا . وهي مشاريع تبدل من شؤوننا وأوضاعنا ، حتى ان أوضعها ، كالسير بعض خطوات ، مثلاً ، لأجلس في الظل ، يغير العالم الذي أنا ذو شأن عملي فيه . وإذا استطعت ان استمطر شآبيب في الأدلة المثبتة ـ النافية ، فاني أغير حالة الطقس .

لنعد الى معرفة الاشخاص . التغيرات ، التي يقيم لها الدليل الذين نعيش معهم ، تدخل صعوبة حقيقية في علاقاتنا معهم . لأنني لا أستطيع أن أسلك مع الآخرين ، بأفضل مما أسلك مع أشياء طبيعية أو آلات، دون ان أقوم باستباقة نظر الى نظامية العلاقات بين الإثارات والانسان ـ الموضوع عندهم ترجيحاً. وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف استطيع ان اشتري خبزي دون خوف من ان يكون مسمماً ؟ إذن ، من الواجب ان نبحث عن المعطيات المحدودة في مصير الغير . وهكذا فان المعرفة الانسانية توسعت في أداتية ، ذات أشكال لا تحصى ، لمعرفة مع من يكون شغلي عندما أكون في علاقة مع الغير . وما يعنينا

هو معرفة ذات صفة اختبار ومراقبة ، مطعّمة باختبارات الرضاعة ، وقائمة فينا منذ تحصيلاتنا الأولى من لغة التخاطب . إنها إرثنا الثقافي منذ ألوف الألوف من السنين ، وهي التي تقول لنا من هو الشخص الذي التقيناه .

هذه المعرفة التقليدية المستندة الى المراقبة والاختبار هي التي نعيش معها أكثر اختباراتنا العادية . وسيكون عبثاً منا إنكار الامكانات القائمة في اننا نعيش ، كما سيكون كذلك التنكر لوجوه العجز الثابت وجودها . ولكن التوسع في التنشئة والتعليم على سُلّم لم تعرف قط في تاريخ الانسانية ، ومثله الصعوبات التي تعانيها التنظيمات الصناعية والادارية في سلطتها المقررة ، وكما يقولون اليوم تصريف الأعمال بواسطة الجسم المأجور ، هذا التصريف أدى بتقني الانسان الى البحث عن طرق أثبت للتمييز بين الكفايات والمواهب وللكشف عن أماكن الضعف في الضعفاء . ومن هذا الجهد تولدت سيكولوجيا الطاقات . والطاقة ، على حد تعريف هنري بيارون[1] ، هي « مرتكز الصفات » للقدرة ، إذ يعني بها تلك التي تسبق القدرة المتأتية عن النمو الطبيعي في التهيّؤ ، وفي الاعداد

(١) هنري بيارون ، التعبير السيكولوجي ، باريس ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٥١ .

التربوي ، وفي الطارىء من التمرين ؛ فالقدرة وحدها تستطيع أن تكون غرضاً للتقدير المباشر . أما التعبير الانكليزي « مهارة » فانه يغطي ، دون تمييز ، مبادىء الطاقة والقدرة » .

هذا التحديد لا التباس فيه . فالطاقة هي المعطى المتناول الشخص الذي يشرح ويبرر ما يمكن ان يصيره . وفي هذه الصيرورة يقوم الأصل المحدود ، الذي هو المعادلة التي تعطي القانون الذي بموجبه تنمو كفايات الشخص . فاذا عرفت طاقات الغير ، استطعت ان أعرف ليس ما هو كائن فقط ، لكن ما سيكون . وهكذا أكون قد سيطرت على تغيراته . والطاقة ، في الشخص ، هي ذلك الثابت ، الدائم .

والتعبير عن الطاقات لم يصنع إلا لإغراء الأفكار . فبدلاً من الصورة المتحركة التي هي للمراقب الجديد ، يقدم قاعدة ثابتة . وعندما أعرف طاقات الغير ، أعلم حق العلم أي كائن هو هذا الغير .

وقد وجدت هذه الفكرة أصداء في التعاليم التقليدية الأكثر تركيزاً . أولاً في فكرة انتقال الكفايات بالولادة ، التي هي إحدى أمتن التقاليد في ثقافتنا . وبالحقيقة ان الرأي القائل بأننامدينون بميزاتناالشخصية (خاصة ذكائنا وتكويننا العاطفي)

لانتقال فيزيولوجي، بواسطة الخلايا التي وهبتنا الوجود، وأرست قواعدها في مخيلتنا بطريقة لا يستطاع معها انتزاع ما أرست. حقاً، ان الذين يعرفون ان الانتقال بالوراثة، في النطاقات التي لا يصح فيها نكران هذا الانتقال، لا يتم بواسطة الدم، ولكن بواسطة مركبات خلوية تسمى النطفات جمع (نُطفة). وهنا، لا بد من الإشارة الى ينبوع هام من التباس أدخله سوء المعرفة بمبادىء الفئات الدموية. وهو نظام مخترع، ينسب الى أفراد كل فئة ملامح تميّز الشخصية. وهذا النظام يجب أن يصنّف في نوعية الغش الفكري، لأن كل المحاولات التي جرت للتحقق اختبارياً من صحته أعطت نتائج سلبية. غير ان هذه التمويهات المزيّنة سيكولوجياً يجب تصنيفها، دون تردد، في فئة العلوم السحرية نفسها: ككشف البخت (المعروف بالتبصير)، والتنجيم. ولكن هذا لا يعني ان النجاح المزدهر، الذي لاقته هذه الممارسات في الغرب المعاصر، لا يطرح، على السيكولوجي والفيلسوف، مسألة شديدة الأثر ومثيرة. كما ان درس التوسعات الفكرية والعملية لا يعني اننا نوافق عليها كقاعدة سلوك.

واذا كان التفكير الذي أثارته الاجتهادات الفكرية قد بدأ يتخلص قليلاً من آليات الانتقال بالوراثة، المتناول درس البنية تشريحياً (لون العينين، وطبيعة الشعر، الخ)، فإن مسألة

معرفة لما ، أو لمن نحن مدينون بالشكل العـــادي لمسالكنا الفكرية والعاطفية ، ما تزال موضوعاً لكثير من المناقشات . والمسألة هذه تُطرح عـــادة ، وبالضبط ، في صيغتيهـا التاليتين : هل نحن مدينون بشخصيتنا لانتقال مولدي بواسطة التعليمات المبرمجـــة التي ستكوّن النـُّطفات ، أو على العكس ، نحن مدينون بها لتأثير البيئة الحياتية الذي يفرض علينـا تنشئة معينة ؟

في صـــدد الإجابة عن هذه المسألة ، نشأت مدرستان متعارضتان، تتميز كل منهما باختيار إمكاناتها . وهاتان المدرستان ما تزالان اليوم قائمتين مزدهرتين ، وكل واحدة منهما لا تنفـك عن تقديم البراهين على صواب القاعدة التي تقوم عليها فلسفتهـا الموضوعية . وهكذا فإن الجامعات في الولايات المتحدة قـــد انقسمت ، فبعضها اعتمد منطق هذه الفلسفة ، والبعض الآخر اعتمد العكس . إذن ، هذا واقع هائــل يستحق تأملاً طويلاً طويلاً ؛ وليس هناك من مثلٍ إلا في جـــامعة قامت بتجارب تميل الى تكذيب الفلسفة الموضوعية التي هي في مركز الشرف .

وهذا الواقع يسمح لنا بأن نشير عابراً الى أية درجة توصلت المعرفة المختبرية في طرح مسائل دقيقة . فعلى النقيض من الرأي البسيط القائل بأنه يكفي أن نضع مخلوقات حية في ظروف

معينة المراقبة ، لكي نحصل على معطيات لا جدال فيها (مثلاً بتبسيطنا الظروف كما أشرنا سابقاً) ، جاء النقد اليقظ يكشف عن ان هنـــاك كثيراً من النتائج المختبرية التي تؤلف تأكيدات مريبة . وعلى كل حـال يبقى الشيء المتفجّر بالدهشة هو الذي يطلع علينا عندما تتناقض النتائج المختبرية المدّعية إقامة الدليل على صحة إدعائها. وهذا ما يحمل على القول إن نقد الاختبارات لم يستوفِ حقه من العناية . فالقضية كانت تتحدّ في أن يكشف مُعتنق الفلسفة الموضوعية المحاربة عن أخطاء التحليل الذي قام به الخصم . لكن الصعوبة تكبر بنسبة ما يكون المراقب ساذجاً . فهو يقدر على أن يختار بين الموافقة على إحدى الدراستين، وعلى إرجاع الخصوم ظهراً الى ظهر ليبحثوا عن طريقة أخرى ، أو ليحاولوا الكشف عن حقيقة أعمق ، وهي الحقيقة التي تفسح ، على مستوى آخر من إثبات الوجود ، لبلوغ ما هو خافٍ اليوم من المشاركة عن مدارك الأخصام .

من المعـــلوم اليوم أن السيكولوجيا الكلاسيكية اعتمدت خلاصة منطقٍ اطرادي . ففي نظرها ان كفاية شخص تتوقف على مزيج من المعطيات الوراثية (كشفت عنها بشكل خاص

دراسات إحصائية تنـــاولت التوائم) [1] وحصائل نتجت عن التنشئة . وهكذا فإن التباين بين الوراثة والبيئة انحلّت عقدته على قاعدة الطرف الثــالث « Compromis » . فالشخصية في كل إنسان هي حصيـــلة وراثته ، تناولتها بيئة التنشئة ببعض التعديل في مجرى توسعها .

ومما يحمل على الدهشة ان هذه الخلاصات ، الفقيرة في مـا أعطت من نتائج ، قد أرضت كثيراً من الأفكار . كما انـه من الثابت ان الدراسة الاحصائية لكثير من حـــالات المراقبة السيكولوجية قد أظهرت العلاقة الضيقة بين قيمة البيئة التربوية التي فيها نشأت شخصيات ، وبـين هؤلاء الأشخاص أنفسهم . ولكي نذكر مثلاً ، شهيراً بين أمثال أخرى ، نذكـّر بدراسات أ. كلينيبرج بين السود الأميركيين [2] . فمعدل القاسم الذهني للسود الأميركيين ، من سكان شمال الولايات المتحدة أرفع منه بالنسبة الى سود الجنوب . وهناك واقع تكميلي ، هو أنه اذا كان السود

---

(١) ر. زازو ، التوائم ، الزوجان ، والشخص ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٠ .

(٢) أ. كلينيبرج ، رسالة في السيكولوجيا الاجتماعيـــة ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

في الاقليمين معدّلهم الذهني أدنى من معدل البيض ، فإن معدل سود الشمال أرفع منه عند بيض الجنوب .

ان استقلال القاسم الذهني ، مواجهاً العناصر التأسيسية أو السلالية، وُضع هكذا بارزاً مع علاقتها بالبيئة الثقافية الصافية. وهكذا يبدو ان ضعف معدل القاسم المشترك الذهني ، عنـــد بيض الجنوب ، مرتبط ، بصورة ترجيحية، بفقر بيئتهم ثقافياً. ومع ذلك ، فإن هذه المعطيات لهـــا قيمتها بالنسبة الى مجموعة إحصائية وأدائية على مستوى المعقولات المتوسلة التي لا تؤخر في شيء، الحالات الخاصة من أن تبتعد عن هذا المعدل. وسنعود الى هذا الموضوع في ما بعد ، ولكن يجب أن نحفظ ، منذ الآن، كم تُظهر مراقبة الأشخاص من حالات يجري فيهـا التوسع على الرغم من التأثير الثقافي ، كما ان هذه المراقبة تتضح على ضوء مستوى الحياة ، والعادات العائلية ، واللغة ، ومستوى تعلُّم الأهل ، الخ . وأبرز ما يكون من المراقبات تلك التي تكشف عن اختلاف ملامح الشخصية، والتي نجدها في جماعة من الإخوة والاخوات الناشئين معاً في عيلة واحدة .

وتأكيداً لهذه المراقبات التي يستطيع كل أمرىء أن يُجريها حوله ، تأتي مقاييس القاسم الذهني لتكشف ، غالباً ، عن ناسٍ موهوبين تتخذهم في بيئـــات مختلفة موضوع درس . والتوجيه

العملي المهني مليء من هذا النوع من الأمثلة ، فتعود الى الذاكرة الحالة الحديثة ، التي برز فيها ذلك الراعي الفتى ، عندما دخل الجيش ، إذ برهن على سرعة خاطر مدهشة .

ومع ذلك ، يبقى علينا أن نتساءل عما اذا كان كل ما لا يتضح المؤثر عليه البيئي المباشر ، في وسطٍ يصعب تحديده ، يجب أن يُنسب الى انتقال وراثي . غير ان الجواب عن هذا السؤال لم يعالج مع ما يستلزمه من احتياطات . وبما ان هذا الكتاب لا يعدو كونه مدخلاً فلسفياً ، فإنه لا يتسع للدخول في تفاصيل أبحاث اختصاصية ، فإنه ، تعويضاً عن ذلك ، يلتزم تعميق النقد .

هوذا الراعي الذي عايش في الجبل الحيوانات الداجنة ، وقدامى جهلة قليلي الكلام . فإنه ، عندما واجه امتحانات كفاية وذكاء ، نجح فيها نجاحاً لامعاً ، وبالتالي أثبت الدليل المناسب الذي ذكره العالم النفسي بالنسبة إليه ، إذ التهم مراحل الدروس المتأخرة التي تناولها في سجله . ومما لا شك فيه أنه ما من تحليل احصائي يستطيع أن يقدّم بسهولة شاهداً على معدل فقر البيئة التي نشأ فيها . وبما أن البحث يتناول الناس الفقراء ، الذين دون ثقافة أو تربية ، فمن الصعب أن نعتمد عنصر الانتقال بالوراثة لتفسير نجاح هذا الراعي في كثير من وجوه

الامتحان . إذاً ، هوذا نحن أمام حالة لا يمكن فيها أن نعتبر الكفاية ناتجة أصلاً عن تنشئة أو عن وراثة بالولادة . أفلا يكون ذلك ، بالضبط ، لأن هذين العنصرين لا يستنفدان أبداً، تحت هذا الشكل المبسّط على الأقل ، تفسير تفتح المواهب عند شخصٍ ما ؟

إن مبدأ التأثير الثقافي كثيراً ما يواجه في أبعاد بسيطة مستقيمة الخطوط لا تتفق والاختبار الحقيقي المتناول الغير . ومن واقع ان أولاداً يعيشون في عيلة واحدة ، يستخلص عالم المنطق ، بنظرة قصيرة ، أنهم يتناولون ثقافة واحدة . في الحقيقة ، لا شيء أكثر خطأً من هذا الاستخلاص . لأن الثقافة، بالنسبة الى كل منا ، هي الطريقة التي نعيشها في قلب البيئة التي أُلقينا فيها. ماذا أقول ؟ فالبيئة هي في قلب ما ومَن نكتشفهم في ذواتنا . ونحن نكتشف نفوسنا في عالم صُنِعَ ، حقاً ، من حاجات مشتركة ماسة بالنسبة الى كل الضمائر العادية [١] (من كان فريسة الأوهام رأى في ذاته كائنات أخرى) ، لكنه مصنوعٌ أيضاً من اختيارات شخصية تتلاءم وأذواقنا، وميولنا،

---

(١) لنتذكّر الى أية درجة يلحّ البنيويون على دور اللغة في هذه المشاركة في البنية الذهنية الاجتماعية .

وأهدافنا ، ومعارفنا . والفكرة البسيطة التي تهيئها ، لكل منا، الصلةالحياتية الواحدة، تجاربها المراقبة العادية التي تجري على المفارقات بين الأشخاص الذين يعيشون معاً . فهل أبناء عيلة واحدة يختلف بعضهم عن البعض الآخر ؟ لكنهم ، وان كانوا حقاً في عيلة واحدة ، لم يحيوا ثقافة واحدة .

سيكون الجواب ان هذه المراقبات تقيم الدليل على دور المفارقات التأسيسية . وعلى الاعتراض القائل : إن هذه المؤسسة لها الوالدان نفساهما (مقيمين الافتراض بالأمانة الزوجية عند الوالدة) ، بهذا يجيب العالم التأسيسي «Constitutionnalistc» بتحليل انتقالات العناصر المميزة تبعاً لتسلسل الأجيال البشرية . وإننا لنجد اليوم التخطيط المانديلي [1] في أفكار كل العالم ، وفي صيغته الجبرية . ومن لم يتذكر الهرم الصغير ، هرم الفئران البيضاء والسمراء ، ولعبتها لعبة الورقات الثلاث [2] ، حيث الفئران البيض تختفي ثم تظهر قافزةً بعض الخطوط ؟ فملامح

---

(١) نسبة الى مانديل Mendel عالم نباتي نمسوي (١٨٢٢ - ١٨٨٤) قام بتجارب على النباتات وطاقاتها الوراثية ، وتمكن بواسطتها من سنّ قوانين عرفت باسمه . (المترجم)

(٢) هذه اللعبة تُعرف في العربية باسم مثيلة لها اسمها « لعبة الكشاتبين » . (المترجم)

الأولاد السيكولوجية هل تكون إعادة للملامح المميّزة في ذوي قرباهم ؟ اذا كنا لا نأخذ بهذه النظرة الوراثية ، فإننـا سنعود فنجدها بعد جيلين أو ثلاثة أو عـدد من الأجيال المتحدرة ، قافزة بعض الأجيال البشرية ، بعد أن عاشت في خفاء العنصر المميّز وراثياً ، في قلب خلايا الأجداد ، الى أن كان ظهورها الى النور ، عند هذا أو ذاك من المتحدرين .

ومصيبة هذه التوضيحات انها تشبه كثيراً لعبة المشابهة في العائلات ، حيث الولد الذي لا يطاق يُفهم أنه محكوم عليـه بـ « الاهانة » ، فإنه الصورة التي بصقها العم – الجد فرنان ، الذي تشاحن وأباه وذهب الى الجزر ، وله من العمر ١٩ سنة – . ولقد كانت له جبهة مماثلة جبهة أبيه في بروزها العنادي ، الخ . ومع ذلك ، فـإنه لما ينسى بسهولة ان الرياضيات الوراثية لا تتناول ، بصورة دائمة ، الأصول في الانتقال الوراثي . وهذه الرياضيات ليست منظمة هذا الانتقال . وفي الحقيقة ، ان ملامح الأفراد المميزة من الخط الواحد ، اذا روقبت بشكل معيّن ، قيس فيها التماثل على قاعدة رياضية ترجيحية ؛ ولكن هـذا القياس سهل نسبياً ، في الملامح البسيطة ، مثل لون وبَر فأرة ، أو تجمّع العناصر التي تلوّن العيون عند النـاس من السلالة البيضاء . والميزة المحتسبة لهـذا النمط لن تذهب الى أبعد من

هذا : لو افترضنا سلالة من النسل تتوزع فيها العلامات الفارقة على الطريقة التي سنذكرها في كل جيل منها ، فسيكون لنا ، على وجه الترجيح ، في الجيل المستقبل ، هذا وذاك من المعدل النسبي لكل من الملامح أو المشابهات ؛ مثلاً : الرُّبع من الفئران البيض والثلاثة الأرباع من الفئران السّمر في الجيل كله . وكل هذا يعني :

١ً ـ ان الحساب هذا ذو قيمة إن كان يتناول المشابهات الشخصية ، الكاشفة بوضوح لا إبهام فيه (لون الوبر أو العينين) في جماعات الكائنات الحية الموثوق بالصلة الوراثية السيكولوجية في ما بينها .

٢ً ـ ان النظرات المسبقة التي يعلنها هذا الحساب تُعبّر عن ذاتها في صيغة ترجيحية لمجمل الجيل .

وإذا كان من السهل ، نسبياً ، أن نُعيّن صاحب العينين الزرقاوين (تاركين العينين البندقيتين ، والخضراوين في شيء من الزرقة ، والكستنائيتين الملوحتين بالزرقة) ، فإنه أبعد بكثير عن التعيين أن ننسب الى هذا ميزة مستقلة ، والى ذاك ميزة مجتمعية ، والى آخر مزاجاً حالماً . فالصفات ذات اتصال بأوضاع مخالطات جماعية معقدة الى ما لا نهاية له . والثابت الراهن يفرض ان الفرد الفلاني الذي حكمنا انه لا جدال في

أمره ، اعتماداً على أبنائه من صُلبه ، ليس ، في الغالب ، غير خليٍّ طروب يأنس به رفاقٌ من عمره .

إذن ، قبل الانصراف الى حسابات باهرة تتناول معادلات انتقال ملامح مميّزة بالوراثة ، من الواجب أن نعرف ، معرفة أفضل ، أيّ الملامح المميّزة هي موضع بحث ، وأن نتأكد ان هذه الملامح تختص ، حقاً ، بأفراد من المجموعة التي يجري الحساب عليها . وهكذا نجد ، هنا ، ان الحاسب مغرًى بأن ينصرف الى عملية حساب يجب أن يتوقف عندها بعد أن برزت له أهمية النتائج الخطيرة ؛ وهذه العملية تقوم على عكس ترتيب العناصر : يعني اجراء حساب يقول بانتقال الملامح المميّزة أولاً ثم بالبحث عن تلك الميزات في الأشخاص المرتقبة عندهم . وبدلاً من أن يُري الحاسب « كيف » تنتقل الملامح المميّزة ، يحاول أن يُثبت « لماذا » . وبدلاً من أن يعير انتباهه للمراقبات فيجري عليها حساباً يخططها ويوضحها ، يتحكّم في الوقائع بواسطة حساب مسبق . إذن ، لقد أشرنا الى خاصة التكيف في الأحكام على الغير . فكيف يصح بعد ذلك أن ندهش للشهرة البراقة التي يملكها هذا الحساب المعقّد ، والتي ساعدته على أن يوجد في الحقيقة السيكولوجية ، ما كنا نريد أن نجده فيها ؟

بعد أن تكلمنا على الملامح المميزة ، يبدو لنا أن درس

الوراثة الذهنية يجب ان يجيء بمراقبات أمتن ، اعتماداً على نوعية أدوات القياس التي هي امتحانات الكفاية التي تتناول القاسم الذهني . ومع هذا فان كل حساب يجري على العناصر الذهنية يصطدم أيضاً بالاعتراض القائل بان الانتقال الوراثي ، في ما يتعلق بالمرونة الذهنية يمكن أن يتم بنوعين من الإرث : الإرث الفيزيولوجي والارث التربوي . ولذلك لم يستطع أي حساب جدي ، حقاً ، أن يتمثل في صيغة جـبرية وراثية تتناول الوظائف السيكولوجية . وعندما نتكلم على العنصر الوراثي في المشابه الفكرية يختلط معاً العنصر التأسيسي الوراثي والعنصر الوراثي الثقافي (ثقافي مع التحفظات التي قدمناها سابقاً) . ومع هـذا فان العنصر التأسيسي يمكن أيضاً أن يتميز عن العنصر الوراثي بالمعنى العادي للتعبير : منتقلاً بواسطة الأقربين، أو على أبعد احتمال ، بواسطة الأجداد . أما اذا تشوّفنا الى احتمال أقرب ، فان صيغة التعبير التأسيسي تعني : محدوداً بالولادة استناداً الى التأسيس العضوي . وهكذا فإن وراثـة كلاسيكية ، في حدّ ذاتها ، كما سبق أن قلنا ، تقبل أن تقرّ بالتماعة المواهب ، التي تظهر في فردٍ ، حصيلة متأتية من أصل بعيد جداً . وهذا ما يفسر كيف يكون الانسان مخالفاً ذويه ، حتى أولئك الذين تفصله عنهم أجيال كثيرة . ولكن يمكن أن

نفسر ، بسهولة ، أنه يستطيع أن يكون نظرياً مختلفاً عن كل أجداده . ويكفي أن نلجأ الى مبــدإ البنية الذي عرضنا له سابقاً . فهذه المعطيات الموروثة من مصدر بعيد المنحدر ، يمازجها ببنية تؤلف خلقه الخاص ، وأصالته . وهكذا تنتظم ثانوياً مسألة التطور الصعبة ، التي تبقى مستعصية على التفسير في صيغة حد انتقالي وراثي صارم ، حيث يجدد كل فرد إرثه الكامن فيه . ومن المفهوم أيضاً أن التعاقبات تؤلف نوعاً من القطيعة عن القــاعدة الوراثية التي تبقى على مستوى الاستفهامات . لذلك رأينا أن المجال منفسح للتمييز ، في داخل مبدإ الانتقال الوراثي ، بين ثلاثة مفاهيم مستقلة : عن الوراثة الثقافية ، وعن الانتقال الفيزيولوجي الوراثي ، وعـــن المؤسسة : هذا ملمح فيزيولوجي مميز يستطيع ان يكون تأسيسياً قوياً دون ان يكون وراثياً في حدود كونه خلقاً بنيوياً خاصاً بالفرد .

وأخيراً قلنا إن استباقات النظر الجبرية الوراثية كانت تعبّر عن ذاتها في صيغة ترجيحية : فتحصل ، على الأرجح ، من تبادل المتخالفات ، يعوض بعضها عن البعض الآخر ، النسبة الفلانية للملمح المميّز في الجيـــل . إذن هذه النظرة المسبقة لا تقول ، ولا بصورة من الصور ، ما تكون ولا ما لا تكون . وهذا موضوع يجب ان يعاد امتحانه مرات كثيرة ، لمعرفة ما

إذا كان هذا التعليم الحسابي الاحصائي الصالح للجماعة له شيء من الاداتية لشخص واحد من الجماعة . السؤال ذو تعقيد يسبب الصداع ، ونحن ، هنا ، لا نعالجه بصورة كلية . ولكنا سنطرح سؤالاً يكون مدخلاً الى المعالجة مفيداً : الفأرة الفلانية تنتسب الى جيل يرتقب له ان يكون ربع الفأر أبيض ، فماذا يعني هذا بالنسبة الى الجماعة ؟ السؤال ، أطلق مخالفاً المنطق ، ولذا يبدو مثيراً الضحك . ولكننا ، مع ذلك ، نراه سؤالاً يستحق أن يطرح : فماذا أريد أن أقول عندما أؤكد ان لهذه الفأرة حظاً من أربعة في أن تكون بيضاء ؟ في الحقيقة إنها بيضاء أو سمراء. ولسوء الحظ ان الاستدلال العقلي ، في مثل هذه الحال ، يشبه استدلال لاعب القمار ، الذي ينظر الى الورقة التي في يده ، فيتذمر لأن الربح فاته لرقم تقريباً .

لكن لا بد من القول أنه لكي نجد الوضع المناسب أولاً : « نثبت ان حظ الفأرة الواحد من أربعة، في ان تكون بيضاء، لا يعني شيئاً للحلقة التي تشغلها هذه الفأرة من المسلسل » . وفهم هذا الحظ مستمد من توضيح رياضي ذي علاقـــة حميمة بتركيب الحساب الترجيحي ذاته . ولقد أثبت الاختبار ان هذا التوضيح يخرج عن متناول كثير من الأدمغة ، التي تعالج هذا الموضوع بكثير من الطواعية المتحركة ، بالتالي ، ان هذا

التوضيح لا يصلح ان يُعلـِّم «بفاء السببية وإذن الاستنتاجية» . فيجب ان نخترق هذه الحقيقة دفعة واحدة ، ممسكين بمعنى القاعدة الترجيحية .

وإذا كان لا بد من ترجمـــة مسألة الاستفهام الشخصي الى صيغة جبرية وراثية ، لكي يطرح بصورة سليمة ، فيجب ان يكون بالطريقة التالية : لقد أنبأتني عشيرتي ان جيلي ستكون فيه النسبة الفلانية من الأفراد الذين سيكون لهم الملمح المميز الفلاني الوراثي . غير ان الحساب لا يقول لي قطعاً إن كنت أملك هذا الملمح أو لا . واذا كان الملمح المميز المعني بالدرس عبارة عن اشارة دامغة مكشوفة مثل لون العينين، فمن الواضح ان المسألة ليست ذات أهمية . وعلى العكس ، إذا كان الملمح المميز يصعب وضعه موضع التحقيق، وعلى وجه التأكيد ، إذا كان موضوع شك كبير ، واذا كنت اتساءل في أمره ، فإن سوء الإمساك بالحقيقة الترجيحية يجرنا الى نتائج محزنة ؛ ولا سيا ان كنت أعلـّق أهمية امتلاك هذا الملمح المميز أو أعيره قيمة . وعندئذ يمكن ان ينتج ، وهذا ما ينتج غالباً ، وهو انني أفتش عن ان استخلص من التعليم الترجيحي إعلاماً بطبيعتي . وبما انني ، حقاً ، لا أملك هذا الاعلام ، يبدو لي أن اخترعه . وهكذا نسمع اشخاصاً يؤكدون ان لهم كذا من النسبة المئوية

من الأصل الفلاني ، وهذا ما يفسر انهم عنيدون . فيجب ألا نعتمد كثيراً على اللاجدوى العلميـــة في هكذا استدلالات عقلية .

إن الحلقة الفردية ، والمعطيات الحاضرة المتـــوفرة في الاحصاء الوراثي لا تعطي شاهداً لأن شخصاً يرى ذاته محتوياً هذه أو تلك من الشخصيات بآلية اجبارية . وبالاستناد الى العمل باستقامة علمية دقيقة ، لا يتمثل فيها شيء يحتوي الشخص في تقريرية موحدة معاني شخصيته . والسبل الكثيرة مفتوحة أمامه . ومن بين هذه السبل سيختار مشاريعه ، كما سنرى ذلك في ما بعد .

أما في صدد النسبة المئوية من الحظ لوقوع حادث ، فقد يكون القارىء فكـّر في مشهد مجـــاور القضية المعروضة . والمقصود تناول المسألة التى تطرح ذاتها عندما يكون عمل قيد المباشرة ، فتسأل نفسك عن حظها من النجاح . غير ان درس القضية ، والظروف التي تعرض فيها يتيح لـــك ان تعبّر عن نفسك في الأشكال التالية : فعمل كذا له كذا في المئة من الحظ للنجاح . فيمكن أن تتخيل حالة النجاح لعملية جراحية لكي تسدد أفكارك في اتجاهاتها . مع العلم ان تطبيق الاستدلال العقلي السابق ضرورة ، هنا ، فلا يبقى من الأمر إلا ان تتساءل

عن الملاءمة الصادقة للعمل ذي الفائدة ، في غياب إعلامات أخرى لكي تستند الى هذا الإعلام الترجيحي لأخذك القرار الذي ترتإيه . والجدول الاحصائي يقول ان المريض له خمسة وعشرون في المئة لبقائه حياً . والحقيقة انه : إما أن يموت وإما أن يعيش ، ففي هذه الحال لن يتمكن من تحقيق ما رسمه الجدول . إلا ان هذا لا يمنع أن يكون الترجيح دليلاً نافعاً في التقرير؛ ليس في احصائيات المستشفى العامل على أساس « كذا» حالة مشابهة ، ولكن لقرارات الجرّاح والمريض في ما يتعلق بحالته الشخصية . وتؤخذ بعين الاعتبار النسبة المئوية للنجاح فتوضع في كفة ميزان مقابلة للنسبة المئوية الأخرى ، وهي كفة البقاء على قيد الحياة اذا لم يحدث شيء . ومن الأمور السهلة الفهم أن تقبل ، في بعض الحالات ، مباشرة عملية ، حظها للنجاح واحد على أربعة ، عندما يكون المريض في حالة ضعف فيها الأمل بالسلامة إذا لم يحدث شيء . والاحتياطات التي ندخلها توحي الى أية درجة يحتمل أن يطلع علينا هذا النوع من الأسئلة، الذي لا يحسب بسيطاً ، شرط ألا نظهر بعض اهتمام مشدّد في الاستدلال العقلي المشدود الى احترامٍ للغير موسوس (الغير لا ينتقص من حقه كونه على سرير المرض) .

وهكذا فإن قضية استقرار المسالك في أصولها ، والمناقشة

لمعرفة ما اذا كان الشخص يجب أن يفتش عن مجموعة مهيئات كفاياته (سلوك ، نجاح ، مواهب) في طاقاته الأصيلة (إرث مولدي أو منطق اطرادي في تأسيس الشخصية) أو في ما اذا كانت نتيجة لمؤثرات البيئة ، كل هذا تفجّر في أسئلة متعددة أكثر تناولاً للخصائص .

نحن نعلم ان تحديد قوانين المصير الشخصي لا يكفيه علم الوراثة الرياضي ، ولا نظرية دراسة التأثير . ولكن الشخص له حقل مفتوح من الامكانات الكائنة : في بنيويته المؤلفة من المعطيات الوراثية ، وفي اللعبة التي تتركها للباحث الترجيحات الناتجة عن اختيارات متعددة ، وفي استخلاص ما يراه مناسباً من الثقافة التي تعرضها عليه بيئته .

أمام هذا النقد ماذا يبقى من نظرية الطاقات ؟ في الحقيقة ، لا يبقى غير أشياء قليلة خارج اتفاقاتها أو تواطؤاتها مع أجزاء من أكثر جوانب الفكر التقليدي محلاً . ومما هو جدير بالذكر ان هنري بيارون ، ابتداءً من أول أمره ، عُني بتسجيل الملاحظات الدالة على ان الطاقات هي في خارج متناول المعرفة ، والقياس المباشر . فكل المقاييس ، وخاصة كل امتحانات الكفاية ، هي مقاييس إمكان ، يعني أنها بديهيات مفاجئة في مصير المواهب والبنيات الشخصية . غير ان هذا لا يحكم ببطلان

البديهيات ، ولكنه يعيِّن ، بوضوح ، ما يجب أن ننتظره منها : تسجيل مراحل التقدُّم ؛ وتقدير الجهود الممكن تقديمها لبلوغ بعض الأهداف ، ولتحقيق بعض المشاريع ؛ وفي هذه المناسبة نعبّر بالأرقام عن ترجيح إنجاح أعمال ممكن تنفيذها .

ولكن الفِكر المتلقاة، كما كان يقول فلوبير، مليئة بالتخطيط المشوَّش ، الذي أثقـــل تفهُّم المصائر الانسانية تفهُّماً سليماً . لذلك راحت المخلوقات البشرية ، التي عانت مشكلة وجودهـا أمام السقطات ، وشدة قلقها أمام الجديد ، تفتش ، منذ زمن بعيد ، عن طريقة تربطها بمعطياتٍ مستقرة . أمـــا فكَرُ الانتقالات الوراثية فهي منغرسة في التقـاليد القبلية المتوغلة في القِدم ، التي اجتازت ألوف السنين ، على الرغم من الانقلابات الثقافية . فليس من عائلة قطعاً ، ولا من فئة مهنية، أو وطنية، أو لغوية لا تُثقل لغتها التخاطبية ، وفكرها بالمفهوم السلالي ، وبما عُزِي إليه من المناقب والمثالب . ولكي نقدِّم مثلاً مختاراً مناسباً لم يتصل بمعرفة الفلاسفة ، ولا بمعرفـة الكثرة من قراء هذا الكتاب ، ننتقي إعطاء قرضٍ مالي في باريس ، لصفقةٍ في تجارة الخمور ، كأمرٍ صعبٍ جداً إذا لم يكن القارض من أصل متحدّر من مقاطعة أوفيرنيه .

وسنبحث ، في عمقٍ ، دور هذه الأحكام المسبقة في مجموعة

ما يتناول الشخصية من آراء وأحكام . وسنوضح بالبرهان مبلغ إسهام واقع الأخذ بوجود هذه المعطيات السيكولوجية في خلقها حقيقة ، وبالتالي في إعطاء المصير الانساني استقراراً أقرب الى قدر طبيعي منه الى نتيجة العمل الانساني (لا ضمير أو سوء إيمان ، تبعاً للتفسير الذي أُعطي له) .

لكن ، اذا كانت الأصول التسلسلية العضوية لا تحدّد الشخصية في ملاكٍ موحّد المعاني ، فإن دور التنشئة ، اليوم ، سهّلَ نظر جمهور المواطنين إليه كاستبداد كامل ينتزع من الشخص كل استقلاله الذاتي . ولقد أصبح معروفاً نجاح الكلمات القيادية للأفكار ، ومثلها الكلمات الفاعلة فعل السمّ ، والتي حلّت محل التهاويل القديمة التي تشحن الرأس. أما في ما يختص بغسل الدماغ ، فهو ، نوعاً ما ، متمّمُ السلسلة بالتبادل . ومن المعلوم كم كان ثقل الصورة ، التي لا تتبدل ، كبيراً في رؤية إنسان يتحكّم به محيطه ، وكأنه آلةٌ تعمل تلقائياً ؛ انها الصورة التي رسمها بافلوف في تحلّب اللعاب « المشروط » . وقد عالج المؤلف الموضوع في كتيّب[1] سمح لنفسه بأن يُحيل

---

(١) الإعلام والشخص ، اذار ١٩٦٤ ، باريس ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

عليه قارئه ، مكتفياً ، هنا ، بالخلاصات الضرورية لبنية هـذا الكتاب . واذا كان اعتماد هذا الكتاب شيئاً أساسياً، على الرغم من التحفظات التي قمنـــا بها ، لكي نفيد من تجربة بافلوف كقاعدة تفسيرية للمسالك الانسانية ، عندئذ يبدو هاماً أن نعيّن ما معنى التجربة . بعيـداً عن عرض كائن حي ، منقاداً بكبسة زرّ في مرّات مخالفة للمنطق ومضادة للحاجات ، رأينا التجربة تعرض علينا ، كما سبق أن قلنا في الفصل السابق ، حيواناً يعقد مع المختبر حواراً ليعلم متى يقدّمون له طعـــاماً . ويأتي حادث إلغـاء تحلـّب اللعاب تدريجياً ، في الهنيهات التي تعقب إلغاء تقديم اللحم ، ليقدّم برهاناً على السرعة التي كان بها الكلب يكتشف الجرس الكاذب . واذا كان الاختبار يعني شيئاً ، فإنه يُثبت كيف ان العضو الحي يصحح عمـــله مطابقاً حاجاته في محيطه ليدفع عن نفسه خطر المعارك المفاجئة لغـير سبب . وفي تعبير آخر يُرينا الاختبار كيف أننا مستقلون وغير مستقلين في بيئتنا . لأنني ، دون ريب ، أنا مسترهنٌ ، بشكل ما، لبيئتي . ففي أحضانها أتغذّى فيزيائياً وسيكولوجياً . وكل المادة التي أتلبّسها انتزعتها مما يوجد حولي . ولكنني إن كنت قد انتزعت مادّتي مما وجدته حولي، فلست أنا مادّة هذا المحيط الذي يكتنفني . وهذه هي الخاصة الأساسية لوحدتي الحيـة ،

القائمة في أن انفصل عن محيطي بنسيج ناعم يُستقطر من خلاله. ولقد أيّد وجود طفيليات الإمعاء هذه الخاصة . وإذا كنت لم آخذ مادة لحمي وعظامي من غير الخبز ، والحساء البصلي ، والمربّيات ، والأدوية ، فلست ، مع ذلك ، ركاماً من مربّى وحساء بصليّ . فمن مادة هذه الأغذية التي منها استخلصت العناصر الضرورية لي ، فصنعت بنيةً جديدة هي جسدي ، كذلك ، فالشخص ليس ركاماً من إعلامات يُحقن بها عن طريق التنشئة . ففي علاقاته بعالم الأشياء والأحياء يختار الشخص ، ويغربل ، ويجهد ، ويبحث عن بعض العناصر ، ليُدخلها في بنيته الخاصة ، كما يبحث عن بنية بنّاءة في بنية مبنية ، ولكي يقلّد سبينوزا[1] ، فقد صنع ما تألف منه هو ذاته . إذن ، الغير ليس حصيلةً مباشرة للتنشئة ، كذلك ليس الغير ظاهرةً تعبيرية مباشرة عن العشيرة .

ان مفهوم الطبيعة — المغذية « Nature - Nurture » لا

---

(١) فيلسوف هولندي (١٦٣٢ – ١٦٧٧) ، صاحب طريقة فلسفية خاصة ضمّنها كتابه : الخُلقيّات « Ethique » . وهي الفلسفة المعروفة بـ « Panthéisme » الله في العالم . وهذه الفلسفة تتلخص في ان العالم مؤلف من عدد لا يحصى من المعلولات ، والى ان الانسان مجموعة من أغاط من الاستغراق الوجودي والفكر . (المترجم)

يستنفد مجموعة العناصر التي تؤلف الشخص. وعلى أساس تناولنا المفهوم البنيوي، نرى الشخص يبتني الآن غناه البنيوي المتطور. فشخص الغير كائن حيّ بانٍ ومبني. إذن، هوذا نحن قد خطونا بعض خطوات على طريق تفهُّم الكائن البشري في أشكاله كشخص: في غناه المركّب ومصيره المفتوح.

أما القارىء الذي يتمنى أن يعمّق معلوماته في حقل دراسة التطورات السيكولوجية، فإنه يستطيع أن يتجه في ثلاثة اتجاهات أساسية. أولاً في إتجاه سيكولوجيا التعلُّم التي تؤلف فيها النظرية البافلوفية، الخاصة بالشروط المكيّفة، فصلاً جديراً بالاهتمام. ويجد القارىء أيضاً، في كتاب لي ني = Le Ny: «الشروط المكيّفة»، مسترشداً جيداً الى لباب الموضوع (المنشورات الجامعية الفرنسية). ثانياً في الاتجاه المعروف بـ: اتجاه السيكولوجيا الوراثية، والمأخوذ من كلمة يمكن أن تكون تاعسة، لأنها، هنا، مستعملة في معناها العلمي الخاص بدراسة معاني الكلمات: أي سيكولوجيا مجموعة العناصر التي تؤلف شخصاً في المفهوم الفيزيولوجي. وهذا ما عُني به ج. بياجيه في ما خلّف من مؤلفات، فجاء كتابه، ملامح عامة لإنسانية العلوم وراثياً (المنشورات الجامعية الفرنسية). وأخيراً، يجدر بنا ألا نُهمل، بعد المتناول السيكولوجي

للتوسع التقدمي ، المتناول السيكولوجي في ما يختص بالتطور مع السنّ ، في شكل خاص . وقد بــــدأ علم الشيخوخة السيكولوجي أن يأخذ مكانة جدّية في التعليم الجــــامعي في فرنسا ، مستنداً الى الرعاية الحماسية التي يقدّمها له س. باكو ، مدير « الدروس العليا » . وكمدخل الى هذه الأبحاث يمكن أن يراجع التقرير المتناول المحــاضرة المشتركة في درس شيخوخة الوظـــائف السيكولوجية ، والسيكولوجية السوسيولوجية (مطبوعات المركز الوطني للأبحــاث العلمية C. N. R. S. ، ١٩٦١) .

٥

فردية الوقائع الانسانية

كل شخص فردية أصيلة . ولا يماثل مماثلةً تامة أيـاً آخر . وبصورة أدق ، إن مماثلة شخص (كما يقال : قِطعُ المماثلة) هي ما يتيح تمييزه عن كل الآخرين . ومع ذلك فإن خاصةً كهذه تُـدخل بعض الصعوبات ، التي نتمنى أن نفتح مدخلاً إليهـا فقـط .

إن فكرة معرفة فردية يمكن أن تعتبر محــاولة مرشّحة للفشل . فمن عهد أرسطو ، والانسان يفكر أن ليس من علم غير التعميم ، وفي رأي اميل مبيرسون ، كل معرفة هي تمثيل موضوع في فئته . وفي الواقع ، اذا اطمأننا الى ماهية كل عملية معرفة ، فمن الواضح ان الفئة والتمثيل يضيفان إليها دوراً أساسياً . أو لم نقل : « تمثيل » موضوع مجهول ، للدلالة على عملية نُدخلـه بواسطتها في دنيا المعلوم ؟ إذن ، التمثـيل يعني إيجاد : الصف ، أو الفئة ، أو النوع ، أو الجنس ، أو الشكلية التي ينتسب إليها

أو إليه الموضوع الممثل ؛ وإقامة البرهان على وجود المماثلة التي ادّعيناها. واذا كان السؤال يتناول طبيعة الموضوع وخصائصه، فمن الواجب أن نتساءل أولاً : ما يكون ، يعني ما يكون الاسم الذي يُطلق على كل المواضيع التي تماثله ، أو التي تشبهه . وفي عبارة أخرى نقول : المدخل الي الكائن الحي يتم ومماثلته الفئة في الوقت الواحـد . والموضوع الفريد ، الموضوع الذي لا يشبه أياً آخر ، يطرح على الفكر مسألة هي ، لأول مواجهة ، غير قابلة الحل . ولقد عُني جاك بيرّيه ، في رواية جميلة جداً ، أو هي تمثيلية، أسماها « الموضوع » وجعل أشخاصها في مواجهة موضوع لا يشبه شيئاً. فراحوا يفتـّشون عن شخصٍ ما يعرف، بوضعه اسماً للموضوع ، أن يعطيه وجوداً أمتن بنسبته الى فئة . وأخـــيراً ، استشير أعمى ، فعيّن الموضوع تحت اسم مموّهٍ . فسُئل « لكن ما هو هذا ؟ ولماذا يُستخدم ؟ » . فأجاب : « لا أعلم ، فقد كان لأمي واحد من نوعه ؛ ولم أعرف قـــطُّ لماذا كان يستخدم هـذا » . وهكذا بقيت شخصيات المؤلف أمام المجهول ، وما لا يُحلّ ، ومـا لا شبيه له . ومَن أو ما لا يشبه شيئاً ، ولا يماثـــل مطلقاً أيّ آخر ، هو في الحقيقة كأنه لا يملك غير وجودٍ شبحيّ .

ان اختبار التسمية أو النداء في عالم الطبيعة هو ، في هذا

الصدد ، مليء بالتعليم . وهذا العلم الذي يصنّف الكائنات الحية بتسميتها سواء أكان في صيغٍ تنظيمية أو تعييناً بالاسم ، يرينا المثل ، في درجته وطريقته ، لجهدٍ عطائي ، فلكل منها مكان في فئته يعيّنه علماء الطبيعة في تبلسله التدرُّجي كما هو معلوم . وهدف الطبيعيين الثابت هو تعرُّف الكائنات الحية . «ما هذا» ؟ « هذا حيوان ، من فصائل ذوات السلسلة الفقرية ، من أنواع السمك ، من طائفة أسماك مياه حلوة ؛ دودة ، مسخ نهري ، الخ » . على العكس ، هذا من فلاحي مناطق مختلفة ، العاجزين عن ان يحتووا الكائن الذي يحدثون عنه ، علماء الطبيعة ، هم ، يعطون المعرفة دون إبهام . ويجب ان تكون قد اختبرت صعوبة التفاهم على الكائنات الحية في الطبيعة ، بواسطة اللغة البرية، لكي تفهم مقدار التقدم الهائل الذي أحرزه البشر بوجود نظام كونيّ . وهذا قائم حقاً في الممارسة المشروعة بتسمية الكائن الحي باستخلاص خصائصه . « طيّب ! سمكة ماء حلو باسمها العامي « Meunier » وسمكة ماء حلو أخرى باسمها العلمي « Chevesne » هما (اسمان آخران لسمك مياه حلوة) ، إذن سمك مليء من الحسك فلا يؤكل » . ولا حاجة الى القيام بتجربة . هذا السمك ، في هذه المناسبة ، مماثل كل ما سبق أن حاولت أكله . فمن خاصتها الأساسية ، وهي

أنها علمياً وعامياً ، استخلصت خاصة اضافية وهي أن لحمها مليء من الحسك .

هذا المثل مأخوذ في نطاق ، لنقل : انه مجاني ، يدل على سير المعرفة في توسعها . ولكن الاختبار لا يبقى مجاناً إن أنا سألت نفسي عن ميزة حشرة مـــا ذات خطر ، لدغت أحد الناس ، أو عن ميكروب اكتشفه مجهر ، أو إذا بحث باحث لمعرفة محصول ما من غلة الحبوب الزراعية . هذه حشرة تنقل الحمى وتعرف بـ « Anophèle » إذن ، هنـــاك خطر حمى الـ « Paludisme » (نوع من الملاريا) . هذا هو الميكروب الفلاني ، إذن ، يجب ان نأخذ الدواء الفلاني ، الخ . وهكذا نرى ان النظامية الطبيعية تدعمها الرغبة المعينة ، ليس في تسمية الكائنات فحسب ، ولكن لكي نستخلص من هذه التسمية معلومات عن خصائصها ، وبالتالي على المسالك التي يجب ان نعتمدها عندما نكون في علاقة معها . وهناك مجموعة تسميات علمية من هذا النوع تحتوي على قسمين :

١ً – كل المخلوقات التي لها الشكل الفلاني تدعى بالاسم الفلاني .

٢ً – كل المخلوقات التي تحمل الاسم الفلاني لها الخصائص الفلانية .

ولنترك جانباً ، هنا ، صلة المخلوقات بعضها بالبعض الآخر ، من حيث هي تحدُّد ورائي ، فانها لا تحمل شيئاً الى المسألة التي نحن في صددها الآن .

والمثل الأعلى الذي يتطلع اليه علم القوانين التصنيفية هو ان يجد مجموعة مسميات علمية تمايز بين كل المخلوقات ذات الاشكال والخصائص المختلفة تمييزاً تاماً ، وتجمع معاً تلك التي لها الشكل ذاته والخصائص نفسها . ودون ان نثقل على هذه المعطيات المدخلية ، يجب ان نلاحظ ، هنا ، ان هذا المثل الأعلى يفترض مبدءاً استدلالياً لا تقوى الوقائع ، مطلقاً على اظهاره . وهذا المثل الأعلى كائن في ان كل المخلوقات التي لها خصائص مختلفة لها أشكال مختلفة والعكس بالعكس . وهو مثل قائم على احدى أقدم العادات البشرية ، واللماذا التي تدور حوله مفهوم جوابها . ذلك لأنه أساس طريقة توجه الكائن الانساني ذاتها في قلب الكون الذي هو فيه ، عندما يسعى الى تأمين حاجاته [1] . من الذي يأكل ذاته ؟ من هو الخطِر ؟ الجواب : هؤلاء هم المخلوقات الذين نتعرفهم بهذا الشكل أو ذاك . نتعرفهم ، يعني نقارن

(١) السيكولوجيا الحيوانية قادت الى اكتشافات حديثة في نطاق الأساليب المستخدمة لتعرف الحيوانات : شارات دامغة جنسية ، أهلية .
(المترجم)

بينهم وبين الذين عرفناهم في هذه الصفات من قبل . ومع ذلك فان هذا الاقتضاء هو دائماً موضع صعوبة تسببها الوقائع ، والانسان الذي يبحث لا يزال يصادف مخلوقات ممن يشبهون آخرين عرفناهم ، لكن خصائصهم تختلف عن خصائص من صادفنا .

انه من الخطإ الفاضح ان نفكر ان التعيين بالتسمية في دنيا الحيوانات قد وصل الى القمة في كون المعرفة البشرية . في حين ان هذا التعيين لم يفعل أكثر من محاولة تجديد نظام المعرفة الذي كشفنا عن أصوله الغارقة في القِدم . ولكن الاشارة ، الى أية درجة بلغ توثُّق الصلات بين التصانيف المحفوظة والممارسات التي أثارت الأخذ بها ، لها أهمية كبيرة ، لما بينهما من التساند . وقد تنبه لويس كوفنيال فأشار الى ان علماء الطبيعة انتهى بهم البحث الى تصنيف الأسماك في صفوف ثانوية من : أسماك عظمية وأسماك هلامية (مميزين المظهر الشكلي بصورة جدية دون أن يكون لهذا التمييز نتائج عملية) ، في حين ان الطهاة لم يحفظوا سوى تعبيرين : الأسماك السمينة والأسماك الضعيفة ، فبين السمنة والضعف التمييز الجدي في مزاولة عملهم . وهكذا وجدت نظامية علماء الطبيعة نفسها ، في الغالب ، تحت تأثير محزن مسبب عن حاجتها الوهمية الى تقسيم فئوي تعلنه بأي ثمن .

وما يجب ان نقوله ، هنا ، هو أن هـــذه النظامية اذا استغلقت عليها بعض المسائل فانها لا تتردد في إهمالها. وهكذا ، فقد قيـــل بوجود أسماك تبيض صغارها أحياء (بيوض ذات جيوب حضانة) ؛ كبعض انواع الانتباس ، وبعض المـــرّ ، وبعض سمك المياه الحلوة الصغير في الأقاليم المائلة الى الحرارة ، التي خُصت بهـــذه الطاقة الفيزيولوجية . لذلك فان الخاصة المشتركة لا تتلاءم ، مطلقاً ، وخصائص علم الهيئة ، مع العلم بأن هذه الحيوانات مصنفة في فئات نظامية متباعدة جداً : بعضها عن البعض الآخر . وبناء على هذا العُرف فان النظامية لم تستطع الاستجابة لمقتضى تماثل التسمية وتماثل الخاصة . أما من جهة بعض الخصائص الجنسية الغريبة في بعض الأسماك التي تغير جنسها في مجرى حيـــاتها : (صلبن ، جريبدن ، قوس قزح) ، فانها ليست في تماثل مع أي صنف نظامي . وهذا مثل آخر يلفت الانتباه الى فشل النظامية ، ويظهر بوضوح ان التصنيف الفئوي القائم بالمسلكية هو غير تصنيف « الطبيعة » ، وهو مثل حفار الأرض[1] .

---

(١) حيوان من ذوات الثـــدي يعيش في اوستراليا وتسمانيا ، يبلغ ٤٠ سنتمتراً من الطول . بيوض ومجهز بمنقار شبيه بمنقار البط وبذنب يمكنه من حفر سراديب وأوجار بقرب المياه . (المترجم)

وعندما اكتشف علماء الطبيعة هذا الحيوان المدهش ، مع كسائه الوبري الناعم كوبر السنجاب ، ومنقاره الذي كأنه منقار البطة ، والذي يبيض ويُرضع صغاره التي تخرج من البيض ، وجدوا ان هذا الحيوان كان مخطئاً بوجوده في هذا الشكل ، ولكي يعاقبوه حمّلوه صفة المغاير للعُرف العام .

وهكذا نرى ان طمع التصنيف ، الذي كثيراً ما وُجِّهَ كأمرٍ يجب إبرازه كحقيقة أساسية في الطبيعة ، قد غلب عليه أن كان في موضع سقوط . ولكي نلتزم الصدق نقول : ان هذا الطمع لم يتحقق إلا في صورة جزئية صغيرة ، بمعنى ان تسلسل الخصائص المشتركة يمثّل ميزةً إرادية مفروضة لا فائدة منها في الغالب . انه ، بحكم التصنيف القائم على علم الهيئة ، يُهمل خصائص كائنات حيّة ، كان من الواجب الاحتفاظ بها لفائدتها الكبيرة . فيبدو ، على كل حال ، ان التجميعات ذات الاتّساع الكبير لا تُستخدم ، في النهاية ، إلا قليلاً جداً في نطاق العمل. والفئران ، والبرغش، وميكروب التدرُّن الذي اكتشفه كوش « Koch » إن كان لها من مشاركة فهي كونها ضربات على البشرية . وعلم القوانين التصنيفية يجهل هذه المشاركة . وأخيراً ان طمع علم القواعد المتناول النظامية هو إتاحة لتقصير الاستدلال العقلي المتناول الاختبار ؛ أو بتعبير آخر يتمنّى علم

القواعد أن يُحِلّ إثبات الاستدلال العقلي ، المتناول هذه الحقيقة ، محلّ اختبار الحقيقة. انه يريد التهيئة الشاقّة التقدمية القائمة في إحلال : « ألاحظ » محلّ استعمال « إذن » . ومما لا شك فيه ، انه اذا تحققت المماثلة بين علم الهيئة والخصائص، فإنها تُفسح المجال لهذا الاستعمال . وهوذا نحن نستعين بمثل نستعيره من لويس كوفّينيال إذ قال : كل النباتات ذات الـ « Dicotylédones »[١] ، أي الثمرة المغلقة حول الجزع ، هي سموم ؛ فالبطاطا هي نبات مزدوج الإثمار ، إذن هي أحد هذه السموم . فالحدّان الأولان من هذه المقترحات هما صحيحان . فماذا نقول في الحدّ الأخير ؟ هو صحيح في ما يتعلق بالزهرة . ولكننا نهتمّ لما نفيد منه وهي التدرّنات . آهٍ من فخّ الفئات !

إن نقد نظامية علماء الطبيعة يؤلف مجموعة من النقاط الدائرة في فلك الموضوع لتُرشدنا ، الآن ، في النظامية الشعبية كما هي مطبّقة على شخص الغير . وهنا، لا بدّ من تأدية الاحترام

---

(١) Dicotyledones كلمة تعني ازدواج الإثمار ظاهراً : في الزهرة من فوق والثمرة من تحت . (المترجم)

ل أ. كورزيبسكي [1] الذي تجرأ فشرع في وضع الفكرة الشعبية ذات التصنيف الفئوي موضع بحث. ولأسباب تربوية نسب أ. كورزيبسكي الخطأ الى أرسطو. ومما لا شك فيه ان أرسطو ترك فلسفة تلعب فيها الفئات الأكثر استبدادية في تصنيفها، والتي هي موضوع مناقشات كثيرة، دوراً كبيراً جداً. ولكن في رأينا يجب ألا ننسى ان السهولة التي ترافق ميلنا الى إفقار الغير بردّنا إياه الى الفئة، تبدو سهولة مرتبطة بالنهج الفكري المتناول السّعة الكونية في الثقافات الانسانية، اذا تنبهنا لهذا الارتباط، ولذلك فإن اقتراح كورزيبسكي أن نضع موضع التحرّك والتنفيذ مسلكية لمعرفة الغير متحرّرة من الإفقار الفئوي، معطين هذه المسلكية شارة لا أرسطوطاليسية، لا – أ أو آ، مقلّدين أساليب الرياضيات الحديثة، اقتراح يجب أن يواجه مع الاستغراق الزمني المكاني الذي يقتضيه. فلنعتمد لا – أ إن أردنا، ولكن دون أن ننسى الروابط الفكرية ومتطلباتها الخاصة التي وصف قوانينها أرسطو وصفاً تحكمياً، ودون أن نهمل دور الثقافة التلقائية المستمرة الحياة

(١) أ. كورزيبسكي، علم وقواعد صحة، لاكيفيل، كونتّيكتوت، ١٩٣٣.

والدائمة الاستعداد للأخذ بناصية الصواب الكبير الذي يحاول النقد أن يبنيه خطوة خطوة .

وفي حياتنا العادية ، الحياة التي لا متسع لنا من الوقت ، مطلقاً ، لكي تمرّ حركاتنا ، وأفعالنا، وكلامنا وفكرنا في غربال الفلسفة، نرانا مدفوعين الى اعتماد سهولة التصنيف . « من يكون هذا الرجل الجالس الى آخر مائدة الوليمة ، والذي يتكلم بصوتٍ عال ؟ وماذا يعمل في الحياة ؟ » وهوذا نحن ننحني نحو جارنا لنسأله . « هذا هو فلان ، وأنت تعرف انه تاجر خمر » . « طيّب » ! لقد عرفنا مع مَن نتعامل الآن ؛ فالنظام يتركّز في عالمنا ، ساعة يقلقه مجهول .

لنعتمد بسرعة وسيلة واحداً من تلك التحاليل النفسية التي عالجها التفكير الذي أوصى به باشلار . لننظر في هذا الرجل الذي يتكلم عالياً ، ألم نقل انه تاجر خمر ؟ وليسأل نفسه القارىء ، كيف نظر الشخصية في الصورة الذهنية ، ثانية واحدة ؟ أراهن بعشرة ضد واحد ، ان القارىء تمثله رجلاً ضخماً ، وجهه ضارب الى الحمرة ، في الخمسين من العمر ، يتكلم لغة لا يحلو سماعها . ومع ذلك ، فإن القارى اذا فتّش في ذاكرته ، وجد ، بصورة أكيدة ، تجار خمر لا تستجيب صورهم لهذه الصورة . والمؤلف ، من جهته ، يعرف تاجر خمر يتمثل

لناظريه في هيئة رجل عمره ثلاثون سنة نحيل الجسم وقور ، يضع نظارتين محملها ذهبي ، وعندما يتكلم معبّراً عما يريد ، وقعت على إنسان موهوب ينقل كلماته صوت أنيق اللهجة فصيحها . والاختبار يؤكد ان هذا الشخص ينحرف عمن يصادفهم محطماً نظامية فئته . لأنه من المزعج ، اليوم في سنة ١٩٧٥ ، أن نتمثل تاجر خمر في ملامح طالب قديم . وهكذا تتركز في ذواتنا فئاتنا المتناولة الغير ، بصورٍ لا يتأخر القراء في تأكيد أنها « مستحيلة » . أجل ، بكل تأكيد ! سيكون من الصعب أن ننكر أن شخصاً له المظهر واللغة اللذان وصفناهما لا يجوز أن يتغلب على مجمل الحواجز ، لينجح في أن يزرع ذاته في تجارة المشروبات . والحاجز الرئيسي ناتج عن ان واقع ملامحه عامة أسكت زملاء مهنته ، ومموّنيه ، وزبائنه ، فهم لا يتعاطون الأعمال معه ، في جوٍّ من الثقة العائلية التي تعودوها . لذلك ، فهو ، مثلاً ، يُحِلُّ صورةً تجد مستندها في مراجع أخرى محل الصورة التقليدية التي لا يستطيع أن يلجأ إليها أو انه لا يريد . وكذلك فإنه يتثبّت من أمره ، مركّزاً صورة الشاب التاجر الحديث على الطرق العلمية في الإدارة ، وعلى غرار المؤسسات المكمّلة ، ويفتش عما يثير عند شركائه ردّة فعل نوعية : « تجارة الوالد انتهت ، فلندخل بكل جدّية

في الأعمال التي تدار علمياً ». ولكن مؤسسة كهذه « صورة نموذجية » ، لكي تستخدم صيغةً على طريقة الاقتصاديين ، فإنها تمثل اليوم مجموعاً من الطاقة هائلاً بسبب قوة الطاقة التي تعارضه بها الأحكام المسبقة المركّزة في الثقافة . وقد رأينا ، في ما تقدم ، أنه يجب أن نحلّ الصورة المستندة الى مراجع أخرى محلَّ الصورة العادية ، اذا كنا نريد أن نسير في عملنا سيراً أفضل . ذلك لأننا ، لحاجتنا الى صور عادية ، نحن في حاجة أن نجعل الغير في نطاق المرجع ، ولسنا معه على ثقة إلا بعد أن ندخله في الفئات التي نحن في أهليةٍ معها .

والفكرة الشعبية ، التي هي فكرتنا في حركتها العادية ، تعلـّق أهميةً كبيرة على المراجع الفئوية عندما تكون في علاقة مع الغير . وفي نظر هذه الفكرة، الأشخاص هم أيضاً يجعلون في مجموعات ، معرّفين في نظامية قائمة على الأحكام المسبقة ، التي تكون نتيجتها الحتمية الامتناع عن أن نرى أصالةً بدائية في شخص ما . وفي هذه النظرة الى الغير ، والتي لن يبلغ القول أبداً الى أي حدّ هي أساس العلاقات بين الأشخاص في المفهوم العادي ، كل شخص ينتسب الى نموذج يجب أن يستجمع كل ميزاته . ومن البداهة أن نقول : انه اذا لم تتجلّ فيه ، بصورة ثابتة ، فإنها ستنسب إليه حتماً . وسنرى في الفصل التالي كيف

ان هذه النسبة من التبعية تؤلف قوة مضادة دقيقة المرونة تميل الى أن تمكننا ، حقاً ، من امتلاك الصفات المميّزة التي هي موضوع البحث .

والأمثال التي تصوّر هذا النقد لا تحصى . وهي بمثابة اللحمة في علاقاتنا بالغير . والاختبار المستمر ، منذ آلاف السنين ، لم ينقطع عن إلقاء الضوء على هذه الميزة التي تفقر هذا الحكم المسبق المتناول الغير . والانتساب الى عيلة ، أو الى مهنة ، أو أمة ، أو امتلاك لغة ، أو لهجة ، كل هذا في نظر الغير كعنصر نموذجي لفئة من الأفراد . وهكذا تبدو آلية نسبة الميزات ، وكأنها آلية الاستدلال العقلي الاستنتاجي الذي وصفناه في نظامية الطبيعيين . وبما أن فلاناً له المظهر الفلاني ، الذي هو من خصائص الفئة الفلانية ، إذن له الميزة الفلانية . وهذه العملية الفكرية هي ما يدعوه كورزيبسكي الاستنتاج الشخصي . ففيها يرى مصدر أسوإ الأخطاء المتناولة الغير ، ومجموعة الأحكام المسبقة الأكثر خطأً ، كما يرى فيها تفسير العجز الكثير الانتشار في رؤية الغير كائناً جديداً ، ذا أصالة شخصية .

ان هذا الميل الى بناء أحكامنا المبرمة ، على حكم مسبق ، عند تقديرنا صفات الغير أكثر ما يتجلى ، وفي شكل خاص ، في

وصف خصومنا . وهكذا كل شعب ينسب الى شعوب أخرى صفات ومذمات تقليدية تسر الأفكار ، وتسدل الستار دون جهد يبذل لاكتشاف الغير . فهل كل فرنسي يعتبر ان سكان أوروبا الشمالية باردون (بلا شك بسبب القطب الشمالي) ، وان الانكليز هادئو الأعصاب ، وان سكان نابولي ثائرو الأعصاب (أيكون هذا بسبب الفيزوف ؟ لا تضحكوا) ، وان الألمان متزنو السلوك وأنهم ، هم أنفسهم ، فرديون ؟ وكل شعب أوروبي ينسب الى الشعوب الأخرى ميزات لا تتفق والحقيقة إلا جزئياً . وهكذا فإن دراسة بنيوية ، لسوق الدلالة الفكرية هذه ، تكشف عن اللحمة الاصطناعية التي تجمع هذه المتشابهات ، وهذه العواطف المحدودة ، وهذه التعاميات الغليظة جداً . ولكي نعيّن تماسك هذا الحكم المسبق ومقاومته كل شكاية حتى أثبت الشكايات ، أوجد علماء السيكوسوسيولوجيا الحد المختزل للمجسم النموذجي ، (في شكل مجسم هندسي) فتكلم ج. ستويتزل على الفصل الارادي إذ يتناول مجمل الميزات الفكرية لكي يدلل بالمناعة التي يتمتع بها هذا الاختبار ضد كل المؤثرات . وفي الحياة العملية ، تترجم المجسمات النموذجية المتناولة الغير بالتعيين على كل منها باشارة تعريفية تصعب محاربتها جداً . والسيكولوجيون ، أصحاب الصعيد

العملي المتناول معرفة العامل ، يعرفون انهم ، عندما يحاولون فتح عيني رئيس العمل على المناقب المخفية التي يملكها أحـــد المشتركين في الشغل ، إنما يهاجمون قلعة فكرية ، ممنّعة بخنادق ومتاريس مناعة لا تدك ولا تتصدع . إذن ، كل فرد في العائلة له مكانه . ولقد سبق أن أشرنا الى لعبة المشابهات ، التي بها يرى كلٌ نفسه منتسباً الى كائن ، أجود ما يستطيع فعله ، غالباً ، في تأكيد المشابهة هذه هو ان يجتهد في استحداث ذاته نسخة ثانية عن ذلك التشبيه .

وفي حدود التعامي إزاء الغير نجد العنصرية ، هذه الطريقة للحكم على الغير ، التي تقوم باسناد صفات وعيوب الى شخص بشري استناداً الى لون الجلد ، أو الى ميزات شكلية في تكوينه (صحيحة أو وهمية) تحدد انتسابه الى نوعيـــة طبيعية من الصنف البشري . ولكن إدانة العنصرية لم يعد لها شأن ، اليوم ، امام الافكار ذات الانفتـــاح الفلسفي ، ونحن نحيل القارىء على المؤلفات المعمقة ، التي عالجت الموضوع في شكل سلطوي[1] . ولنذكر دائمـــاً بان دراسة العنصرية تشتمل على

---

(١) الكتاب الممتاز ، لهنري ـ ف فـــالوا ، السلالات البشرية ، (١٩٥١) ، هو مدخل جيد الى هذه الدروس .

فصلين . الأول تحديد السلالات ، وإدانة كلية تتناول مسلحة « جبذنانة » من حماقات تعنى بوجود السلالات المزعومة ، كما تؤيد طرقاً مستخدمة لتصنيف شخص في سلالة . وهكذا نجد ، بين معطيات كثيرة مناقضة العلم ، معطىً يقول بأن شخصاً ما فيه ثلاثون بالمئة من سلالة الشمال الأوروبي وسبعون بالمئة من سلالة البحر المتوسط . حتى القول بأن فلاناً من السلالة الالبية نراه محتاجاً الى إزالة ما يكتنفه من شك . إذ ليست السلالات غير احصائيات مسيطرة قائمة على صلة ببعض المناخات البشرية السكنية . أما السلالة ، في حقيقتها ، فهي لا تؤلف ملمحاً فارقاً شخصياً إلا بقيمتها التعبيرية المنسوبة إليها عن طريق الثقافات ، وطريق شبكة الأحكام المسبقة التي تتسع إزاء الموضوع السلالي. والفصل الثاني يقوم على نسبة مميزات سيكولوجية الى أشخاص يمكن أن يصنفوا ، بصورة جدّية ، في الفئات السلالية الكبيرة. وكل الأشغال الباحثة التي لها وزنها في العالم تخلص معها اليوم الى القول بفقدان امكانية عرض ميزة ما سيكولوجية يمكن أن توضع في تبادل علاقة مع السلالة . والتحديدية السيكولوجية ، تحديدية مواجهة بالمعنى الفلسفي لمجمل العناصر التي تتألف منها المرآة المتحركة [1] ، وفي حال تمكننا من الوصول الى عناصرها ،

---

(١) وليس بصورة ملزمة : آليات تنتج المرآة المتحركة .

لا نقوى ، ولا في حــال من الأحوال ، أن نستند الى السببية السلالية . فالفوارق بين الأفراد المنتسبين الى سلالات مختلفة هي استنتاج (وليست سبباً) لأوضاع متبادلة بين المجموعات السلالية بعضها إزاء البعض الآخر. فالانعكاس المنطقي للصيغ، والطريقة المألوفة في المجسم النموذجي للبنيات المجتمعية ، هي أساس سوء الفهم الذي يمزّق اليوم الكرة التي نعيش عليها . ولكن المسألة الهامة للنقد الذي نقوم به هي مسألة استئصال هـذه الأحكام المسبقة في الفكر العادي . إذن ، كيف تهيـأ لكل إنسان ان أمسى فقيراً بوسائل النظر الى الشخص الأصيل عند الغير ، وكما سنرى في ما يلي ، الى الشخص الحرّ ؟ هذي هي مسألة الضمير ، والمسؤولية ، ومتناقضاتها الأساسية . ولقد تمسك الناس بعنادهم عند استفهامات لا جواب لها ، لأنهم أرادوا أن يطبّقوا على كائنهم الخاص فكرة موحدة المعاني في كل المجالات ، وتمضي في خط مستقيم ، وهي فكرة توفقوا إليها بالطريقة غـير الحية ، فجاءت تلك الاستفهامات عـاملة في أساس هذه الفوضى والاضطرابات المعاصرة .

ومما بلفت النظر أيضاً ان الرجوع بالانتساب الى الفئـة ، يطبّقه كل فرد على نفسه عندما يسأل عن كائنه الخاص. وهكذا تجد الكبرياء العائلية، والطبقية، والوطنية، والسلالية مرتكزها

في الانتساب الذاتي الى الصفات المشهورة عن تلك الجماعة المنتسب إليها . «فهذا المدعوّ ديبون - دوران لا يتراخى أبداً، ولا يخضع لأحد ، انه عنيد كالبغل ، الخ » . وكل واحد يشعر أنه محمي ، أو على الأصح ، مقود ، تثيره هذه الصورة الذاتية التي يقدمها له الجسم النموذجي المرتسم عن جماعته. وكم نصادف من صنوف الفئوية الجغرافية ، أو على الأصح ، المناخية ، التي تأخذ بها الفكرة الشعبية ، في تفاوت من التقييم الذي تقدمه تعميمية لا تعرف قلقاً للضمير . فليس من لا يعرف هذه الطرق التصنيفية تتناول الأشخاص قائمة على مماثلات رمزية (أو بنيوية لمن يتمسك بالبنية) مع أخذ ملاك حياتهم بعين الاعتبار .

لقد ألحنا الى سكان أوروبا الشمالية الباردين كجليدهم ، والى الايطاليين المفتلين كبراكينهم . ولكن كل إنسان في وسعه أن يراقب في من حوله ، ولنقل هذا بكل وضوح وخلوص ، آثار هذا التعليم المصنف فئوياً ، حيث كل من الأشخاص سواء أكان من سكان الجبال ، أم السهول، أم الشواطىء البحرية أم النهرية، أم كان من سكان البلاد الكثيرة الأمطار ، أم الكثيرة الأيام المشمسة ، الخ . يجد نفسه متصفاً بصفات شعرية ، لا يطمئن الى صحتها في نطاق حياته . وهكذا فإن سكان حوض المتوسط يمثلون الانسان الطروب والثرثار ، والمتسرع قولاً وعملاً بسبب

شمسهم . ولكن موزعي هذه الصفات المميّزة نسوا ان الرومان الذين كانوا يعيشون تحت هذه الشمس قد تركوا شهرة شعب نظامي ، مسلكي ، ذي ذهنية باردة . والألمان يُعتبرون قليلي الكلام ومسلكيين لأنهم أبناء سهول ذات مناخ قاس . ولكن الجرمان ، أسلاف هؤلاء الالمان ، كانوا مشهورين ، في العصور القديمة ، كما اشتهرت كل الأمم الجرمانية ، حتى القرن الثامن عشر ، بانعدام المسلكية . والانكليز يُحسبون هادئي الأعصاب بسبب ضبابهم ، ولكن الايرلنديين ، الذين يعيشون في الضباب ذاته (أو على الأصح أكثف) ، مشتهرون كشعب مغتلي الحماسة ، وغضوب ، ومتطرف في الاعراب عن شعوره . والى أولئك المتعلقين ، رغم كل هذا ، بأحد الأحكام المسبقة الأكثر عناداً في ما يتعلق بالغير ، نورد ذكر الحالة التي يحياها الاسكيمو . فالاسكيمو يبقون ، على الأقل ، المثل المدهش لرفض الاحكام المسبقة . انهم يسكنون الطرف الشمالي من الأرض ، وهي بلاد هائلة لا إنسانية ، بلاد هجرها الله ، على حدّ قول فريدريك روكيت ، ومع هذا كله ، فهم يؤلفون شعباً أكثر الناس بهجة ، وأوسعهم مخالطة ومشاركة عاطفية ، وأشدهم اندفاعاً الى التواصل . وهم يعيشون على اللحم وحده تقريباً ، ورغم ذلك فهم ، على العكس مما يقرّه الحكم المسبق ،

في مـــا يتعلق بالنزعة القتالية التي تشتد في أكلة اللحوم ، وبالنزعة الهدوئية السلمية التي يتصف بها أكلة الأعشاب، شعب يجهل الحرب جهلاً كاملاً . حقـــاً لا ، ليس هنالك من شعب يستطيـع ، أكثر من الاسكيمو ، إفساد النظـام الفئوي في الأفكار، هذا النظام المركـّز ، بصورة غير مزعجة ، في الأحكام المسبقة . غير ان كل هذه الملاحظات ، لا شك في انهـا تترك الطريق حرّة لتفهـُّم الأفراد، الذين لا يكتفون بأنهم لا يعيدون منطق الأحكام المسبقة المعتنق خطأ ، ولكنهم لا يماثلون قطعاً نموذجاً متوسطاً من الجماعة ، بصورة مشروعة كما هو مفروض شرعاً .

ان فكرة الفئة هي ، إذاً ، مرتكزة من جهة على ثقافة متأصلة ، وقد رأينا بعض أمثلة عليها ، ومن جهـــة أخرى مرتكزة على موجب منطقي أساسي أدى الى وضع صيغة لحكمة مختزلة النصّ من التراث الارسطي : « لا يوجـد علوم غير المجملات » . وهذا المبدأ ، بوصفه موحي الفكرة العلمية منذ ولادتها ، كان يجب ان يقود تياراً من المعارف المبنية على أساس الفئات البشرية التي تحاول ألا تعيد صوغ الأحكام المسبقة ، بل تأخذ بعين الاعتبار الملاحظات النظامية . والآن ، سنمتحن

بسرعة ، تحت عنوان مثلٍ بارز ، العلم التيبولوجي الانساني ، أو علوم النماذج .

منذ عهد إيبوقراط ونماذجه الأربعة ، الى تصنيف مع نماذجه التسعة التي جاءت حصيلة مزج ثلاثـــة عناصر قاعدية (الاستعداد للتحرك ، والحيوية ، والبنية الهادئة البطيئة) مروراً بنموذجي بافلوف (القابل الاثارة ، والمعلق عن المضادة) وكثير آخرين ، وبخالقي نظاميات الشخصية الذين لا يحصون . ولقد عرفت السيكولوجيا المعاصرة علم المميزات ، الذي وضعه إرثاً عن هيامنس وفييارسما ، شهرة عظيمة . ولا نجيز لأنفسنا ان ننكر على هذه السيكولوجيا نجاحها نوعاً ما . لأننا مدينون لها بمجمل من الملاحظات السيكولوجية ، التي تؤلـــف إسهاماً مرموقاً في معرفة الغـــير . أما التقنيات المتحدرة من هذه الفلسفات، فإنها تتيح المجال للتقدم المعمق فيمعرفة الشخصيات اذا ما عولجت بتحفظ . والاهتمام الكبير ، الذي يؤخذ به معتنقو هذه الطرق الرُّصناء ، هو أن يمنعوا عن أنفسهم ان يحجزوا على الاشخاص في تحاديد ضيّقة . فهم يبذلون جهداً للتوصل الى جمع عدد كبير من المعطيات ، التي نتجت عن تفكير بغية ملاحظة اشخاص بشكل يكون فيه كل منهم موصوفاً في كل خصائص فرديته . لذلك يعوّلون على ان يعملوا ليكونوا الأشخاص النماذج

ذوي أوصاف ترتيبية يمكن بواسطتها وضع كل منهم في المكان المطابق . غير انهم لا ينسون المقتضى البنيوي الذي يجعل ان تكون الصيغة التحديدية المميزة النهائية في وجوب المواجهة في كليّتها المنظمة . ولقد كتب ، في هذا الصدد ، اميل شريدير نفسه ، وهو أحد كبار الاختصاصيين[1] في علم التيبولوجي السيكولوجي ، منذ زمن بعيد ، ما نصه : « ان مبدأ النموذج كمجمل مميزات مجتمعة عند أشخاص يمكن تصنيفهم تماماً يبدوا لنا خادعاً » . وبالحقيقة لا يمكن ان يوصف الشخص وصفاً مستوفىً كاملاً عندما يكون مماثلاً واحداً من النماذج . وعندما يكون النموذج بُعداً كميّاً على سُلّم الفئة المنسوب اليها الشخص ، فهذا البعد يختار في الشخص مظهراً خاصاً يعزل ، بصورة إرادية ، عنصراً . ولقد سبق ان ناقشنا مفاسد هذا التفكيك .

ومهما يكن من الأمر ، فان العلم التيبولوجي السيكولوجي ، بصورته المفضلة ، يصف الاشخاص ، معتنياً ان يضاعف العناصر الوصفية ، وان يبرز ما يتميز به كل منهم بتقدير دقيق ،

(١) آ. شريدر ، علم الهيئة وعلم النفس « المطبوعة الرسمية السلسلة الثانية ، السنة الثانية عشرة ، رقم ٥ ، تشرين الثاني–كانون الاول ١٩٥٦ .

وان يعيد بناء البنية الحية بواسطة منطقٍ اطرادي يأخذ بعين الاعتبار تنظيم العناصر . هذا هو مطمح لا بل مطمع علماء النماذج الانسانية . ولكن لسوء الحظ، نرى ان علماء التيبولوجيا قلما يطبقون علمهم على عملهم ، آخذين بهذه التحفظات ، وهوذا نحن ، دون ان ننتقص من استحقاق من طبقوا العلم على العمل برصانة ، وفطنة ، نذكّر بانه يجب ان نعترف باستخدام هذه التيبولوجيا ، في الغالب ، كوسائل للتصنيف الفئوي المبسط الذي يفقر ، بشكل خاص ، معرفة الغير . فالدراسات التيبولوجية تجري تبعاً للزي . فهي تستخدم كموضوع محادثات عالمية ، ومن خلال ما تعممه لغة الجرائد ، تنمو غالباً الأفكار النظامية لكي تجعل لنفسها صورة عن الغير من أفقر الصور . وعند هذه الدرجة من التنظيم الفئوي ، نتمنى ، هنا ، ان نعرض فقط ، ملاحظتين تتناولان دراسات التيبولوجيا السيكولوجية .

١ً — اختيار النماذج أو الأبعاد المرجعية يجري ، دون استثناء في ما هو موجود من التيبولوجيات ، بصورة ارادية ؛ فالنموذج الانفعالي والنموذج الهادىء الأعصاب ، مثلاً ، كلاهما يُنتقى في تعابير التقليد السيكولوجي الأكثر استناداً الى الاختباء والمراقبة لا الى النظريات . ولقد توسعنا في الالماعة

الى ضعف أساسات هذه الفئات . ومن الثابت ان التيبولوجيات الحديثة تدّعي انها لا تستخدم هــذه الأساسات إلا مصحوبة بوسائل اختبارية صالحة لإثبات صحتها ابتداءً من معطيــات الاختبار . ومع ذلك ، لا سبيل الى انكار ان نقطة الانطلاق الارادي في البحث لا تعيّن نهائياً الحكم المتناول الغير في نطاق من أشدّ المفقرات ، وهو ذاته إرادي . ولقــد أشرنا الى الاستنتاجات الاختبارية بصورة أدخلنا في حيّزهــا اختباراً سيكولوجياً . وعلى كل حال ، يحصل هــذا التعيين المحدّد ، بوضوح ، عندما يحرّك العامة التيبولوجيات . فالذوق ، والميل، ومنحدر السهولة ، كل هــذا يدفع بكثير من الأدمغة نحو التبسيطات النظامية الشاذة ويجد، بالاشتراك مع التيبولوجيات، حقلاً من النشاط يحقّ لنا أن نسميه حقــلاً مقيتاً . وبالاختبار ثبت ان معرفــة التعابير التيبولوجية ، الموجودة في تصرّف الأدمغة غير المهذبة ، هي مثير مشؤوم يعمل لافقار . معرفــة الغير . ولكي نلاحظ هذا يكفي أن نراقب لغة التخاطب في العائلات ، والمكاتب ، والمصانع ، والجرائد .

٢ً — مع ان العدد الأكبر من علمــاء التيبولوجيا لا يوافقون على أصول النموذج وأُسسه عند من يملكونه ، فكثيراً مــا إستُخلص ان هؤلاء النماذج لا يتلاءمون والمعطيات الدائمة عنــد

هؤلاء الأشخاص . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نعتبر ان الميزات النموذجية هي تأسيسية ، أو على الأصح ، وراثية ، أو على قيد خطوة من الوراثة . ولقد اجتاز قيد هذه الخطوة عدد كبير من مستخدمي هذه الطريقة . وهنا يتضح أننا لا نتمكن من متابعة السير على خطى علمــاء البيولوجيا دون كثير من التحفـّظات، اذا كنا نعتبر ان الأفـكار التي عرضناها على مرونة الأشخاص وامكانات تغيّرهم ، هي أفـكار مكتسبة [1] . ولنستعن بمثل يُلقي ضوءاً على فكرتنا . بعد التصنيف الذي قام به كلٌ من كورساس ويونغ ، وُجد تصنيف آخر ، يلاقي اليوم نجاحاً هائلاً، هو التصنيف ذو القطبين من الميزات الداخلية والخارجية. فالقطبية الخارجية هي الميل الى الانفتاح على العــالم وعلى الآخرين ، والى الاتصال بسهولة بالآخرين، ثم التعبير عن النفس؛ والقطبية الخارجية هي العكس . وهناك تيبولوجيا تاعسة تريد أن يصنـّف الأشخاص على هذه السلـّم في مكان معيّن، فيكون كل فرد منا : إما ذا ميزات خارجية ، أو ذا ميزات داخلية . ولكنه يبدو غريباً عن الكون الذهني للكثرة من علمــاء التيبولوجيا ان أحد الناس: هنا ، ذو ميزات خارجية، وهناك،

---

(١) بناء على الصيغة التحديدية التي أوجدها ل. مالسون .

ذو ميزات داخلية ، مع ان اختبار الغير المفتوح يظهر ان الأشخاص ، الذين ليسوا على جانب عظيم من الحمق ، مقودون الى ازدهار شخصي او الى البقاء على احتياطهم ، تبعاً للظروف التي يوجدون فيها . ولكن ، ليس من المبالغة أن نقول ان بحث العالم التيبولوجي سيكون ، يوماً ما ، في أن يتحمّس لإيجاد سلوك مسيطر يُتيح ، في هذا الموضوع ، أن نصنّف فئويـاً الشخص مرة واحدة . ولكننا لا نفكر في ان هـذا الجهد سيكون مفيداً، إفادة عملية . وهذا التأكيد سيتضح، كما نأمل، بتفهُّمنا الشخصَ الذي نعرضه تدريجياً ، هنا ، تفهماً حيـاً كاملاً .

وانطلاقاً من قواعد مختلفة جدّ الاختلاف ، حـاولت السيكولوجيا الباحثة في الاختلاف، الوصول الى فهم الاختلافات بين الأشخاص . وهذا المسلك القائم على الاختبار السيكولوجي بصنع مقاييس تتناول الملامح المميِّزة بين شخصيات الأشخاص (برهنة ، فطنة ، ميزة ، الخ .) ، يستخدم طريقتي تحليـل للوقائع الانسانية ، وكلاهما مستعارتان من علم الاحصاء : طريقة التحقيق بالمشابهة وطريقة العلاقة المتبادلة (أو الفوارق بـين الأصل والمألوف التي هي تحاليل لمربّع الفوارق الشخصية بالنسبة الى المعدّل الحسابي أو مشتقاتها) .

وبالنسبة الى موضوعنا نجد مفيداً أن نوضح ، على حد قول بول فريس" في محاضرته ، تاريخ ايار ١٩٦٢ ، ان السيكولوجيا الباحثة في الوصول الى فهم الاختلافات بين الأشخاص لا تميّز ما بين الأشخاص فردياً ، ولكنها تجعلهم ، في عملية تجميع ، في فئات احصائية ، يجري في قلبها توحيد الفئات المتماثلة بعضها في البعض الآخر .

ولنمتحن ، على سبيل المثال ، طريقة التحقيق بالمشابهة . التحقيق بالمشابهة هو طريقة تصنيف الأفراد في فئات متسلسلة تبعاً لمجمل نتائج معينة . وبصورة أوضح ، ان الفئات تتجاوب في الشبه مع وحدةٍ نموذجية من السكان ، معتبرة ممثّلة معدَّلاً لكل السكان الممكن ادخالها الى الامتحان . ومن الواضح انه اذا كان الأشخاص موزّعين على فئات كثيرة ، فإنهم ضمن هذا الاعتبار يُحسب كل واحد منهم مميّزاً عن غيره من الأشخاص المنتسبين الى فئات أخرى ، وان هذا الفرد ، مع ذلك ، موحّد بالمشابهة مع كل أفراد فئته الداخلة في التحقيق بالمشابهة . وبصورة أكثر دقّة ، يوحّد الأشخاص بالمماثلة بمعدّل قيم كل الأفراد المجمّعين في الفئة . ولنأخذ مثلاً : الفئة الثالثة ، من مجموعة للتحقيق بالمشابهة تشتمل على كل الأشخاص الذين حصلوا في الامتحان الشامل المتناول المستوى على مجملات النتائج من :

٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ أو ٣٠ جواباً جيّداً . إذن ، سنأخذ في اعتبار بجمل كل الأشخاص من الفئة الثالثة من المجموعة ، كما لو كانوا حصلوا على بجمل النتائج ٢٦ جواباً جيداً . كل شيء أفضل بالنسبة الى من أعطوا نتائج أدنى ، وكل شيء أقبح بالنسبة الى من أعطوا أفضل .

وهذا ما ينتهي بنا الى عملية عامة تقوم في أن نستخدم معدّل فريق كمعطىً يمثل أشخاص الفريق . ففي الحالة السابقة يمكن أن نفهم، في أسوإ الاحتمالات، أن تجميع الناس المواضيع من ٢٢ الى ٣٠ ، بصورة معارضة لأولئك الذين أحرزوا أقل من ٢٢ وأكثر من ٣٠ ، يمكن أن تكون له فائدة لتبسيط الحسابات . ولكن ماذا نقول عن أخذ فريقين بعين الاعتبار ، أحدهما يمضي ، لنفترض من ١٨ الى ٢٥ مع معدّل الى ٢١ ، والآخر من ١٩ الى ٣٠ مع معدّل الى ٢٥ ؟ ان استمزاج أعضاء كل فريق بمعدلهم ، والتمييز بين أعضاء الفريقين بواسطة فرق معدّلهم ، ينتهيان بكل بساطة ، اذا احتطنا للأمر ، الى اعتبار ان موضوعاً كهذا من الفريق الأول (معدّل ٢١) له ٢٤ جواباً جيداً ، يكون بانتسابه الى هذا الفريق الأول ، أدنى من آخر من الثاني (معدّل ٢٥) الذي لم يعطِ سوى ٢٢ جواباً جيداً . وما من حاجة الى التأكيد أو الشرح ان العالم الاحصائي الرصين

لا يقع في مثـــل هذه الفخاخ . لكنه يعلم ، وهو الذي يقوده مسلك قانون الأعداد ذات الصفة الفردية الداخلة في الجمـاعة ، وهو يعلم ان هذه الميول الاحصائية لا يجوز أن تنتهي بنـا الى استنتاجات من مستوى أشخاص الفريق . ولكنه لا يهمل أن يأخذ بين الاعتبار ، بالاضافة الى معدّل الفريق ، أدلّة توزيـع القـيم الاحصائية . وقواعده الرياضية ذات النّسب المئوية في التوزيـع (العادية) للقـيم المعروضة تقوده ليُعطي المعدّلات دلالتها الصادقة . ولكن ، مَن في فكرته العـادية يفرض على نفسه مسلكاً احصائياً عندما يتكلم على المعدّل ؟

وعندما تكون المسألة تتناول صيغة افتراضية غير محدودة قائمة على شعب كامل (مثلاً معدّل قامة مجنّدين في فرقـة عسكرية) فمعدّل هذه الصيغة المشار إليها ليس له أي نفع في معرفة أشخاص هــذا الشعب ، بنسبة بعضهم الى البعض الآخر ، في موضوع هذا الفارق . فأنْ اتعلـم أن معدل الفرنسيين أدنى من معدّل البلجيكيين ، هو علمٌ لا فائدة منـه البتة في ما يتعلق بما بيني وبين البلجيكيين ، وأقلّ من هـذا فائدتي من صديقي فان انتفيربان لأن التغطيات بين التوزيعين اللذين يتناولان القامات عنـد البلجيكيين والفرنسيين هي في شكل انـه يوجد كثير من البلجيكيين أصغر من الفرنسيين .

إذن ، المقارنة ، بين معدّلات الفريقين ، يجب أن تجرى مع اتخاذ عدد من الاحتياطات . لأن استخدام الأدلّة الاحصائية ، في المفارقات الشخصية المتناولة المعدّلات ، مع التحسّب للخطإ المرتقب ، لا يحلّ قطعاً مسألة المفارقة المميّزة بين الأشخاص المنتسبين الى الفريق . أما من حيث مجمل النتائج المقيسة ، فالمعرفة الدقيقة لفردية الشخص لا يمكن أن تُردّ الى المعدّل في شكل أعمى . ولن يكون مشروعاً أن نميّز بين شخصين بمعدّلي الفريقين اللذين ينتسبان إليهما إلا في حالة التثبُّت من الاختبار حيث السُلّمان المجموعان لا يتغطيان ؛ يعني ، هناك ، حيث أضعف قيمة لأحد التوزيعات أقوى من الأكثر قوّة في التوزيعة الأخرى . ربّما تبدو هذه الملاحظات كحقائق تافهة ، ولكنها ، مع هذا، يجب أن تؤخذ غالباً بعين الاعتبار، عند القيام بأشغال احصائية كثيرة .

يبدو واضحاً ، بصورة عامة ، ان مقارنة فرد من سلسلة احصائية بمعدّلها هي عمل أقل شرعية بنسبة ما تكون القيم أكثر اتساعاً . وهكذا تتضح الأسباب التي لأجلها ، كما قلنا في ما مرّ ، يتبيّن ان كان المتناول هو الفارق ، أي الصيغة الافتراضية غير المحدودة الممتدة على كل السكان، والمعدّل ليس له أية فائدة بالنسبة الى أفراد هؤلاء السكان . وبتعبير

آخر ، إنه لا يأتي بأية معرفة عن كل شخص من أفراد الفريق . واستخدام مبدإ المعدّل في اللغة المعتمدة للتعبير الجاري ينتهي الى تجاوزات صريحة تُعتبر ، في النهاية ، مغالطات مكشوفة .

وهوذا نحن نعرض مسألة الأكثرية كمثلٍ يثير الانتباه . من المتفق عليه في السياسة الديمقراطية ، بواسطة مجلس الأمّة ، أن تؤخذ قرارات السلطة برأي الأكثرية المعبّرة عن رغبات المواطنين . فهناك مجلس أمة فائدته واضحة ، فلا يتضح جيداً كيف يمكن أن تؤخذ القرارات بشكل آخر ، اذا رُفض الاختيار الاستبدادي الشخصي أو الفريقي . ولكن نسيان الميزة التعاقدية في الطريقة ، المنتقاة بصورة إرادية ، لخلق الكائن الجماعي للتعبير الموحّد هو تصرُّف فكري عملي غير مشروع كلياً .

واذا كانت أكثرية اثنين وخمسين بالمئة من المواطنين هي الى جانب السياسة الفلانية ، اليوم ، فإنه يكفي أن يرى غداً ثلاثة بالمئة ، بعد تفكير ، ان هذه السياسة سيئة حتى تتغيَّر « الارادة العامة في البلاد» . ويبدو ان تصرُّفاً كهذا يُرى سليماً . ولكنه من الثابت ألا يوضع هذا التغيير الحادث ، تحت ضوء كاشف ، حتى يُرى الى أي حدٍّ جاء هذا الكائن الجماعي سليماً ، وهو الذي تجمع فيه كل المواطنين في خليطٍ توحيدي ، لا حقيقة

لتوحيده . فموافقة الأقليات على تطبيق القرارات الصادرة عن الأكثرية ليس مشروعاً إلا تعاقدياً . وليس مقبولاً أن نجبّر لها رأي الأكثرية . « وأنتم الذين تقولون بهذا ، أنتم آخرون، سواء أكنتم انكليزاً ، أم باراغويين، أو برازيليين» . والكلام موجّه الى شخص يمكن أن يكون مواطناً في هـــذه البلاد ، ولكن ليست هناك أية شرعية لهذا الشخص ، ان كانت له نظرة أصلية على هذا الموضوع . فإدخال شخص في معدّل فريقـه[1] هو ، إذن ، عملية بها ننتقل الى جانب معرفة الغير . وماذا نقول عن « كل المدينة تتحدث عن هذا » في حين انه ، في الغالب، تكون الاشاعة التي نعنيها، لا تتفشّى، حقيقة، إلا في حلقات محدودة، نتواصل في ما بينها بأسباب ثقافية أو اقتصادية ؟ أما من جهة « كل باريس » فكل واحد يعلم ان هذا القول ، على مجموعة من السكان تبلغ ثمانية ملايين ، يمثل فريقاً لا يتجاوز بعض مئات من الأشخاص ، الذين يُعنى بشأنهم الصحفيُّون فقط بحثاً عن مواد للأيام الخالية من الأخبار .

وسواء أكانت سيكولوجيا المفــارقات الشخصية علمية أم

---

(١) والأكثرية تعني ، فلنلاحظ ذلك ، ميل هذا المعدّل لينحرف نحو واحد من الاختيارات في هذه الحال من التبادل .

شعبية ، فهي منطقية بالضرورة أولاً، وبالاهمال ثانياً، ولا تُعنى بالفرديات إلا في الحالة التي فيها تتناول مشابهتهم بميزات مشتركة بين أفراد الفريق . والعلاقات المتبادلة تستخدم الطرق نفسها كما هو معلوم . والحقيقة ، كما سبق فعرضنا في مكان آخر [1] ، ان النظرة المسبقة القائمة في العلاقة المتبادلة تتوفر لنـــا في اعتبارنا لكل قيمة متمثلة بـ (أ) سلسلة قيم متوقعة متمثلة بـ (ب)، وستصبح كلها متشابهة مع معدّلاتها . أما في نظرة الطرق الكلاسيكية في السيكولوجيا التي تتنـــاول المفارقات الشخصية فالشخص بموجبها ، يتخلص من المعرفة ، ويرى نفسه مردوداً ، من جهة، الى المشابهة بمشتركات معروفة للفريق ، ومن جهة أخرى ، الى الاختيار الإرادي ، في نسبة متفاوتة الكمّ ، في مـــا يتناول الشخصية التي يُلقى عليها الضوء بتدبير خاص . ولذلك فـإن معرفة الغير ، بطرقٍ متحررة من عمليات الحكم المسبق، راحت تبحث عن حلّ لهذه الصعوبات .

لكن يجب الاعتراف بأن الجهود المبذولة في هـذا الصدد لم تتعدّ حتى اليوم ، المحاولات الاستكشافية ، وهي محـاولات

---

(١) انظر كتابنا : أزمة وتقدم في التطبيقات الصناعية في السيكولوجية السوسيولوجية ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، إذار ١٩٦٣ .

متردّدة تتلمّس طرقها . ولقد قلنا إن مراقبين برزوا الى العمل على أساس ان معرفة الغير تتفلّت ، في تحديدها ، من كل تصنيف علمي . وبعضٌ منهم ، كما أشرنا في ما تقدّم ، يحكمون بأن المعرفة العلمية ومعرفة الغير ، هما ضربٌ من الصوّان . ولسنا هنا في مجال التوسّع في شكل أطروحي . غير اننا نرفض أن نحجز على العلم في نمطية من القواعد محدودة ، لا تؤلف ، بعد كل عناء في توسيعها ، غير انحرافٍ نحو السوء. العلم هو تقدّم الفهم يقوده الضمير ، والرغبة في ازدياد الفهم ، وفي ازدياد صحة الفهم . فعلى حدّ قول الأب زازّو ، في عرض مثير في السوربون سنة ١٩٦٣ ، ليس من حجّة قوية حقاً في تحديد العلم في مسلكيات مضمونة النفع على بعض الأصعدة ، كالقياس والتعميم . العلم ، كما يقول ، هو فهم واقعي يثبته « الاختبار والسبب » . وقد أضفنا الى هذا القول ، في ما تقدم من هذا النص : العلم هو فهم يفتش عن معرفة موضوعه في حقيقته ، دون تشويهه اذا كان ذلك ممكناً . إذن ، ليس من مانع عن أن يحاول الباحث معرفة الغير بواسطة مسلكية تستعير من العلم تواضعه ، وانفتاحه على الدقّة .

لقد سبق أن قلنا : إن الفضل في اعتماد أبرز المحاولات ، للوصول الى معرفة منفتحة على الفرديات ، يعود الى

أ. كورزيبسكي . والأساس الذي يعتمده للقاعدة التي يقترحها ، والتي يدخلها من ناحية أخرى في نمط قاعدي عـــام من أنماط المعرفة ، تقوم على مسلكية ، تقول بألا نفقد الثقة ، عندما نبلغ معرفة تتناول الغير ، في ان هذه المعرفة محدودة في وسائل بحث متسلسل يقظ نضعه موضع العمل . وهكذا ، أعرف ان للغير الخاصة الفلانية ، لكن لا يجوز لي أن أنسى أنه يمكن ان تكون له خواص أخرى ليس لديّ معلومات عنهـــا . « ماري هي الطيّبة ، الى آخره » . فالإلى آخره ، مسلكية حملت الابتسامة الى شفاه كثير من الأدمغة المتكبرة ، هي ، دون شك ، فكرة دهاء تربوي في معرفـــة الآخرين . وتطبيقها النظامي في السيكولوجيا نظامياً ، وفي فنّ الإمرة ، وفي العلاقات المتبادلة شخصياً ، وعائلياً ، وجنسياً ، ومهنياً ، ودولياً ، وسلالياً ، سيؤول الى تقدم انساني هائل (نحن لا نخاف تصريف الأفعال في المستقبل الإخباري) .

ان كل تقنية الامتحانات الاختبارية العامة السيكولوجية ، وكل التربية : المدرسي منها والجامعي ، وكل تنظيم الاشغال ، والادارة العـــامة ، كل هذه مجتمعة تستفيد من الانفتاحة التي يحدثها استعمال الى آخره . وفي مــــا له علاقة بهذا ، يوصي كورزيبسكي بالاحتياط في استخدام فعل كان ، عندما يعيّن فئة

إذن ، فهو يعيّن فئـــة الغير . « ماري تكون ... » ، اذا جرؤت على القول ، اليوم ، في حزيران ١٩٦٨ ؛ حتى أوسع المعلومات القانونية . وكما ان المزدوجين (« ») تـــدلان على تشخيص الموضوع ، فانه يوصي بالتفكير وبالتالي بكتابة : يكون ، بـين مزدوجين . والمنتسبون الى هـذه المدرسة لا يترددون في ان يرفقوا اللغة التي يتكلمونها بحركة صغيرة تدل على هذين المزدوجين باليدين مرفوعتين ، لنذكّر ونذكر بأنهم ليسوا أتباعـاً مأخوذين بالفئوية التي يزعمونها متناولة الغـير . والأدمغة المعبّسة هيبة ابتسمت ، عندما علمت بنا أسمته ولوديات « ولدنات » . ولقد عُرفت مدرسة كورزيبسكي ، تحت اسم مدرسة المستوعبات العامة في الكلمات ، الى بعض الأخطـــاء بالنسبة الى الرأي المثقف في فرنسا . ولكن الآخـــذين بتلك العاهات يصبحون أكثر حمقاً ، بسبب هذه الحالات من الضعف المتأتية عن معتنقي مذاهب جديدة عـن طيش ، وبسبب اهمالهم مصدر التأملات الغنية التي يقترحها علينـــا التعليم الكورزيبسكي .

نحن لا نتمسك في الغير بأفضل من مظهر جزئي مرتبط بالاختبار ، محترم قدر الامكان ، كما سبق أن فعلنا . الغير دائماً أكثر مما نعلم عنه ، والغير دائماً أكثر مما هو بادٍ من كيانه . وكل

تدبير أو قياس نعتمده لا يعين على معرفته إلا جزئياً . ونحن نعلم ، بفضل البنية ، ان جزءاً لا يفسر ، قطعاً ، الكل . ونحن نعلم أيضاً ان الجزء يتخذ أدائية تختلف تبعـــاً للكل الذي هو داخل في بنيته . اذن ، كل معرفة بالغير تقتضي ما يلي :

١ً ـ أن تبقى مفتوحة لكل إعلام جديد ؛

٢ً ـ أن تكون معتبرة كانها مؤقتة ؛

٣ً ـ محاولة ادخالها مؤقتاً في بنيـــة كل عناصر مجموعة النصوص والظروف التي هي في تصرفنا .

ولهذا فاننا نأخذ باعتبار بنية الغير مؤقتة ، تاركين معرفتنا الجاهزة للتغيرات الممكن حدوثها :

أ) عن طريق حصائل جديدة تتناولها جباوة المعلومات ؛

ب) بسبب التطورات الخاصة بالغير .

لكن يجب أن نعمل ، لأنـــه لا يمكن ان ننتظر مثل (برّين داندين) كل معرفة الكون، منذ العتمة الضبابية التي كانت عند التكوين الى التعبير التصويري الذي نعتمده عندما نعهد بحياتنا الى ربّان طائرة ، أو بمالنا الى أحد كتّاب العدل ، أو بصنبورنا الى سنكري ، أو بصوتنا الانتخابي الى نائب .

وهكذا يجب الاعتراف بأننا نعمل في المشكوك فيه ، وفي المتوقع أو المرجح ، أو بتعبير أدق في مواجهة الممكنات التي

ننسب اليها ترجيحاتنا . وهذا هو نصيب الانسانية المتجسدة . كل حقيقة عملية هي ترجيح ؛ إذ يمكن أن تتغير ؛ ويجب ان ننتظر تغيُّرها . ففي انتظار ذلك ، لنعمل بما هو أحسن ، معتمدين ما عندنا من المعارف؛ ولكن ، مالي أقول في انتظار؟! لنقل : آخذين في بحثٍ أفضل ، ومستعدين دائماً أن نغيّر رأينا وما عندنا من معلومات . « المجاذيب وحـــدهم هم الذين لا يغيّرون » هذا ما تقوله حكمة الأمم ، أو هو هذه الكوارة التي نختزن فيها الأفضل والأسوأ من التفكير الذي نكون معه، هذه المرة ، على وفاق .

ولكي نعمل يجب أن نعرف ، لأن الكائن الانساني لا يعيش على الغريزة التي تدفع بالحيوانات الى التحرك لأغراضها . ولكي نعرف يجب ان نصنّف فئوياً . والمسألة قائمة ، فقط ، في ألا ننسب قيمة مطلقة الى هذه الفئات خارج مرجعها الى تطبيقنا ، هنا والآن . والمفكّر حرٌ أن يقرأ هـذه الأشياء في أبـدية السماء ، ومع أفلاطون في جمهوريته ذات الفلاسفة المحاربين ، التي طُرِد الشعراء منها . ولم ينس صاحب هذه الجمهورية ، مع ذلك ، انّ تجاهل أو جهـل إعلان التغيُّر هو تعرض لمجـابهة الحاجات مجابهة قاسية ، في عالم كل مـا فيه متغير (بما فيه عالمنا ، وحاضرنا أكثر من أي وقت مضى) . وعندئذ نجدنا

في حدود قول الدكتور رينه بيز[1] ، الانسان تترصده القرحة المعدية أو الذبحة القلبية ذات المنبهات الموجعة . والفئات ، أمر لا بد منه . فالنماذج السيكولوجية ، كيف نستغني عنهـا ؟ ولكن لـكي نقارن الفرديات بالنماذج ليس من الضروري ان نماثل بينها كطرفين . ولنتخذ هـذه الفئـات كإشارات مذكرة بالمقارنة ، والتي ، ابتداءً منها ، نحدد كل شخص . إذ ان المهم ، في آخر الحساب ، ليس ان نعلم مَن أو ما يشبه هذا المتناوَل للمشابهة ، بل أن نكتشف وان نضع موضع العمل طريقة معرفة تتيح ، كما يقول فرنسوا غوشه ، ان نعلم اين موضع اللامماثلة مع أحد .

---

(١) رينه بيز و ب. غوغلن ، عياء القـــادة ، باريس ، مطبوعات المشروع الحديث ، ١٩٦١ .

٦

مجموعة الوقائع الانسانية : التحديد بالميزات

التحديد بالميزات هو الفعل الذي بواسطته ننسب ميزات الى أحدٍ ما . وليس من مموّه في هذه العملية ، التي درسنا ، في ما تقدم ، آليّتها الأساسية : الوضع في فئـات . الانسان الذي صافحني في الشارع كبير وحسن البزّة ؛ وإني لأراه كذلـك بنظرة خاطفة . ومديري إنسان شرير : هـذه هي الميزة التي أراها له منذ سنوات كثيرة ، على أثر اختلافات جرت بيننا . ولكن واحداً آخر لا يراه بهاتين العينين : فإن له أسباباً أخرى ليصنّفه تصنيفاً آخر ؛ مثلاً ، لأن المدير لا يعامله كما يعاملني . وذلك لأنه ذو تفكير غير تفكيري وميزة تقيم المفـارقة بيني وبينه ، فإنه ليس مثلي، أنا، الذي صدمتني أساليبه التي أجدها خشنة لا تصدر عن تفكير .

وهكذا يبدو ان كلاً منـا يحيا في كونٍ يسكنه أشخاص ينسب إليهم الميزات التي تحلو له نسبتها . وهذه النسبة تؤثـر

على الاستعدادات التي نتـّخذها تجاه الآخرين . لا ، ليس لأنها تتأثـّر ، بصورة بسيطة ، بالتحديد بالميزات . فإذا كان المدير شريراً ، فأنا « أستجيب لشرّه » : إما بالخوف والخضوع، وإما بالعداوة الباطنية . وليس مستبعداً أبداً ، في بعض الحالات ، أن يقوم شخص تجاه أحد الأشرار بنوع من العبادة : فهناك شخصيات يغريها الشرّ ... ولكنه من الصعب أن ننكر ان استعدادات كل إنسان تجاه الآخرين لا تتنقـّى عن طريق تحديد ميزات الآخرين .

وبالمبادلة ، ألاحظ ان استعدادات الآخرين تجاهي تتوقف على الطريقة التي حدّدوا ميزاتي بواسطتها. وهذه الاستعدادات سأحدّد ميزاتها ، بكل تأكيد ، بدوري . ومع هذا فإن علاقاتي مع الغير تـُبنى على لحمة الأخذ والردّ المتبادلين . وباللسان ، واللغات ، والايماءات ، ونظامية تبادل العلاقات الذي يوجـّهه كلٌّ نحو الغير ، نحن نحيا في تبادل أخذٍ وردّ ، يكون فيه كل فعل جواباً لفعل ، هو ذاته جواب ، وهكذا الى ما لا نهاية .

ولو نحن حلمنا الى أية درجة تتنقـّى شخصيتنا ، ابتداءً من علاقاتها بالغير ، وابتداءً من استعدادات هذا الغير وأحكامه تجاهنا ، يصبح سهلاً علينا أن نقدّر حقّ قدره ، المكان الهائل

الذي يتخذه ، في حياتنا الشخصية ، هذا التبادل التحديدي بالميزات . وهكذا فإن كل العناصر المساعدة على الوصول الى معرفة الغير هي نفسها حصيلة مجموعة عوامل تقدّمية . والأفعال التي تجعل الغير يتجلّى لعيني، أثارهـــا الوضع الذي اتخذته تجاهه . ولكن ، أنا نفسي ، بحركاتي ، وكلماتي ، ألم أكن تحت تأثير الطريقة التي بها كنت أتلقّى نظامية علاقاته بي ؟ وهذه الحلقة ، التي تؤلف مثلاً آخر عن الصلة البنيوية في هـذا التأثير الفعلي المشترك ، ليس من سبب موجب قطعها في مكان منهـا : هنا أو هناك . وعلى الصعيد المنطقي الخالص تطرح هذه الحلقة هنا ، كما أشرنا في ما تقدم ، مسألة تدوّخ الفكر ، الذي يتحمس لتطبيق قاعدة بسيطة ، هي قاعدة السبب والنتيجة . انها حلقة يجب أن نفهمها لكي نستطيع السيطرة عليها .

هل يستطيع المرء أن يحيا غير عابىء بتحاديد الغير تبعـاً للميزات ؟ وهل مَن يتمكن ، تجاه نفسه وتجـاه الغير ، من أن يصوغ ، كما يقال ، حكماً موضوعياً صياغة محدّدة ؟ وهـــل يُحسب ، في الامكانيات البشرية ، التحرّر من هـذه العلاقات المتبادلة ذاتياً ، التي تؤلف اللحمة ، والحمّالة ، والمـــادة التي تنقـّي كائننا الانساني في مجرى مماسكه الضميرية ؟

الاختبار يؤكد أولاً ان أكثرية الأشخاص تبقى عالقـة في

شبكة التحديدات بالميزات المتبادلة . والظهور في اتباع الأقلية شاق، سواء أكان ذلـــك لأسباب فلسفية ، أم سياسية ، أم دقيقة ، أم جنسية . ففي مجتمعات الأولاد ، وفي المدرسة ، وفي أوساط اللعب ، لا يشفق أحدهم على من لا يلبس ، ويتزيا مثلهم ليكون مقبولاً في عالمهم . ففي أيام حداثتنا كنـّا نلاحـــق أصحاب الشعر الأمغر بالحجارة. ولكن، لا شك في ان الأذواق تغيرت ، فالبنات الصغيرات يبسطن بكبرياء شعرهن الأمغر الذي يقدح ناراً . غير ان هنـــاك شارات تثير العداوة وتـُلقي حرماً على المنعزل فتفصله عن المجتمع. فأصحاب القلوب الصامدة والأدمغة الصافية، والايمان الداخلي الراسخ، وحدهم يستطيعون أن يبنوا قيمهم على مستندات أخرى ، فينجحوا في التحرر من لعبة التحاديد بالميزات . ولكن هؤلاء الأشخاص معرّضون للخجل ، بل للاستشهاد : وبل لمن تأتي الشكوك على أيديهم ، يقول ذاك الذي يثير الشكوك نفسها لكي يهزّ الأفكار ، مدركاً بوضوح ما الذي يجلبه على نفسه . والانسان الذي يعيش وحده، مغايراً التحاديد بالميزات ، عليه غالباً أن يختـــار بين القداسة القاسية والجنون الذي ليس أقلّ عناء ...

أما نحن ، فالكثرة بيننا تحسب حساب التحديد بالميزات . والتكريم ، والمودة ، والبغض ، والتقدير، والازدراء، والتحقير

والامتداح ، كلها تلحق بنا ونحن ننمّط نظامية علاقاتنا ، تبعاً لأنماط مختلفة من استمداد الغير تجاهنا . ومن الثابت حقاً انــه عندما تكون حلقة حياتنا وعلاقاتنا في حــالة اتساع وغنى يسمح لنــا بأن نجري تنظيماً يتناول تحاديد الغير بالميزات . والقلوب الضعيفة تفتش عن منجدٍ لها في الفرقاء الحُماة ، وفي التكتلات الخادعة ذات التأثير ، التي في أحضانها يضمن وجود تحديد إيجابي بالميزات ، في فرقائهم ، كما يستطيع أن يتحرّر من التحاديد بالميزات السلبية ، عند الآخرين ، محتقراً مؤلفيها. والشخصيات الصامدة تختار بنفسها الثمن الذي يجب أن يدفعه بدلاً من آراء الغير ، بعد أن تكون قد قدّرت قيمة الأشخاص الذين يعبّرون عنها . والخبثاء ، والمهرة ، والمرنون يفتشون ، بصورة أبسط ، عن أن يتركزوا في علاقات حسنة مع كل العالم، مبتسمين للكل : هذه سياسة اليد الممدودة للجميع ، يمارسها بعض المرشحين دون أن تقلق ضمائرهم لكن على كل حــال ، بعيداً عن أي تشدد ، أو قداسة ، أو انفعال مسترهن ، يبدو أنه من الصعب جداً أن يعيش الانسان ، قليلاً أو كثيراً ، آخذاً بعين الاعتبار التحاديد بالميزات .

منــذ بعض سنوات ، كان صعباً ، في فرنســا ، أن ترفض شراباً كحولياً عند أحد المضيفين . وما يزال هذا الرفض، حتى

اليوم ، معتبراً في بعض الأوساط والمناطق ، كإهانة ؛ وقد سمع المؤلف أنه ، في سنة ١٩٦٧ ، لم يوجد قط شخص تذمر من أن يُعتبر « لقيطـاً » إن هو رفض كأساً من الكحول . فالتلميح الوراثي ، والخفيات الجنسية ذات ردّة الفعل تظهر الى أي حد هي ذات صلة بالمصادر الميثولوجية المتأصلة . وذلـــك الذي رُفضت منه كأس الكحول يشعر ، إذن ، انه مصنفٌ كائنـاً محتقراً ، حتى في أعماق أخلاقه : فيشعر بنفسه أنه وُضع موضع بحث في وجوده المريب . أما الذي أراد أو أُجـبر أن يرفض ، يشعر جيداً أنه استُبعد ونـُبذ الى خـارج كون الشاربين الأخوي . وفي كتاب لغبريال شوفالييه ، مقطع طرحت فيـه مسألة إنسان ، جيد حقاً ، قـــام بتمتماته واختلاطه الذهني الأول ، وهو « لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر : شرّيب جيّد حقـاً » . الخليط من الشدة ، والدم ، والحمرة ، والخمرة ، آلَ بالفرنسيين ، عبر أجيال من الناس ، الى اعتبـار الذين لا يشربون الخمر ، غير قادرين أن يكونوا غير أنصاف رجـال ، وأشخاص حقيرين ، وغرباء على كل حال . ومما لا ريب فيه ان التقاليد ، التي كانت ترفض أن تكون المرأة كائناً كامل الهوية الانسانية ، حرّمت عليها ، للسبب ذاته ، وفي الوقت نفسه ، أن تشرب الخمرة . ولنلاحظ ، من جهة أخرى ، ان بنية الأحكام

المسبقة كانت تجيز ، عند الضرورة ، الخمرة البيضاء للمرأة ، وهكذا تتناسب الـ «طبيعة من الدرجة الثانية» في الخمرة البيضاء والمرأة ، في تلك الأنظمة الثقافية . ولقد أصبح الكلام عن هذه المسائل ، اليوم ، لا يعرّض للاصطدام ، بعد أن تحرّر فكر الشباب من تلك القيود التي قيّدت حياة اخوتهم الأبكار ، زمناً طويلاً . وهكذا فإن بنيات هذه الأخلاط المتماثلة تؤلف خليطاً من التفكير أصبح تحليله العرقيّ استضاءة لا بد منها للكشف عن الحماقة الانسانية .

إذن ، التحديد بالميزات يقدّم لكل إنسان منا أشكالاً من الكينونة : وفوق هذا فهو يقدّم فرصاً للكينونة . والاستفهام المصيري القلق « من أنا ؟ » يقدّم جواباً سهلاً . وهذا الجواب يمكن أن يأخذ صيغاً كثيرة : فإما أن يدخل الشخص في الكائن الذي يقدّمه له التحديد بالميزات ؛ وإما أن يثور ليحاول تحقيق الكائن المعاكس (وهذه هي نظامية العلاقات بين الإثارات والانسان الموضوع البنوية النموذجية ، التي تعرفها جيداً سيكولوجيا المراهقين) ؛ وإما ، كما سبق فأوحينا ، أن يحاول الشخص أن يستقل ذاتياً ، تجاه الإثارات المتبادلة بين الأشخاص ، في بناء كائنه تبعاً لقانونه الخاص ، باذلاً في هذا السبيل جهوداً قاسية . وأحد شروط هذا التحقيق هو أن نفهم أولاً من أية

قوة يحب التحرّر ، وما هي الأخطار المهدّدة ، والفكـر المرنة الدقيقة ، والحيَل ، والتواطؤ الخفي المظلم الذي يتربص بهـذا التحقيق في داخل قلوبنا ، لاغتنام فرصة تخلّينا عن انتباهنا

ولا بدّ من أن يكون القارىء قـد لاحظ تدريجياً كيف أظهرنا ، في وقت واحد ، وجود هذه البنيات الثقافيـة والسيكولوجية ، وقوّتها وتأثيرها ، وكيف ان جهود هذه القوى تابعة لتأثير تمسكاتنا الواعية ، ولإرادتنا المستقلة ذاتياً . ولقد جعلتنا طريقة التحديد بالميزات أن نلمس باصبعنا المسلسل التوسعي ، الذي بواسطته نعيم شبكة مواصلات بـين النتائج والأسباب (كل نتيجة هي سبب مسلكيات) ، شبكة متبعـة بدقة وممدّدة بصورة لا تحدّ ، نعم ، ولا تنتهي . وهذه الشبكة تغطّينا وتحدد حركاتنا باستبداد العلاقـات الاجتماعية . ومن المعلوم الى أي حدّ تلعب اللغة التخاطبية دوراً أساسياً باقتراحها الفئات . هذه اللغة التخاطبية التي بواسطتها ، على حـد قول م. فوكو ، « نحن نعقّل تضخم الكائنات » [1] ، ولغة التخاطب هذه تسيطر علينا . إذن ! وكل المسألة (اذا اعتبرنا اننـا استعارات ، فلا نتردّد بعد ذلك ...) نعم، أليست كل المسألة

(١) م. فوكو ، الكلمات والأشياء ، باريس ، غاليار ، ١٩٦٦ .

قائمة في أن نعمل بشكل لا نوقعها فيه على رأسنا ؟

إذن ، التحديد بالميزات يفتح الباب للأفضل والأردأ . وهو يلقي ضوءاً كاشفاً على مجموعة التوسعات التي بواسطتها ، أكثر البنيات المجتمعية عادية ، وأكثرها ضعفاً ، وأشدها استبداداً تفرض شروطها على شخصياتنا . وبصورة أدق إلقاء الضوء الكاشف على ارتباطات هذه المجموعة – مظهرين كيف ان الأشخاص العائشين معاً يخلقون ، في ما حولهم ، كائنات بنيوية تصبح غريبة عنهم – هو تفسير للاسترهان الذي يشعر به الشخص في مواجهة المجتمع ، والمؤسسات، والثقافات التي خلقها أحياء بشريون ، والتي أسهمت هي ذاتها في الخلق . ولكنها تظهر ، في الوقت ذاته ، انها هي بنية القلعة المهدّدة بالضياع ، حيث نجد خنادقها ، ومتاريسها ، وثغرات جدرانها المعدّة للأحداث القاتلة . وهي التي تساعد على ضرب الحصار حول استبداد التشرُّطات . وهي ، عند التفكير ، لا غنى عنها في استراتيجية غزو الاستقلال الذاتي الشخصي .

ولكي نصل الى هذا الاستقلال الذاتي ، فأول ما يجب أن نحاول صنعه هو أن نستولي على اطمئنانة الضمير . ولقد كان لمتابعة التحاليل النفسية، مدّة ثلاثة أرباع القرن، (في ١٩٦٨ ، لنؤرخ استدلالنا العقلي ، مثل شعار كورزيبسكي) مادة كافية

لأن ترسي في فكر الجماهير الكائن اللامبالي . وليس من المبالغة أن نقول : إن اللامبالي هو لعدد كبير من الأدمغة نوع من كائن ثانٍ ، آخر ما بيننا ، غريب يلعب لنا أدواراً ويمسكنا بيده مؤخراً ازدهار فرديتنا الشخصية . ان توالد الأفكار بين هذا المدرك والتخيل الشيطاني هو ثابت : فالغريب الذي فينا هو صورة من أقدم الصور ، دون شك ، والتي بواسطتها يجد إيماننا الرديء كل الأعذار لكي يتفلّت من الجهود التي يمثلها لنا ضميرنا في شكل مشوّش . فقد وُلد الشيطان في حين بدأ الضمير يطرح على الكائنات البشرية مسألة تعهّد قدرها ذاتياً ، وبكل تأكيد مسألة مسؤوليتها عن ذاتها . وهل الانسان غير المطمئن ، في نظر فرويد ، ذلك الغريب عنا، ذلك الآخر الذي فينا، والذي يؤخرنا عن ازدهار شخصنا ؟ المفسرون دينياً وتاريخياً لم ينته نقاشهم بعد . وهناك مؤلّف حديث العهد لـ ج. لاكان[1]، يلحقه النقّاد بالمدرسة البنيوية ، يدافع بصراحة عن هذه الناحية من البحث المتناولة دراسة ما يترسب ، في هذه الأنا التي لكل منا ، من الضعفين : الفكري والجسدي . والمدارس القائمة على التحليل النفساني متوسعة في تعابيرها المختلفة التعبير عن شخصنا توسعاً

---

(١) ج. لاكان ، كتابات ، باريس ، ١٩٦٧ .

لا نهاية له ، هذه الأنا المختلفة الوجوه والتي هي الذات ، هذه الأنا الخاصة ، وهكذا إثاراتها الملحّة الناجمة عن البطانة الضميرية ، وهذه المجموعة من الاندفاعات الغريزية ، ومن اللاوعي ، والأنا الفوقية ، كل هذه اقترحت على الأفكار بنيات كثيرة الغنى ولكنها أيضاً كثيرة التعقيد . وهل يكون من الطيش ، في كثير من الحالات، أن نقدّم كحقيقة، ان تعقيد الأنظمة قدّم حقلاً من التفكير الداخلي ، أثارته حيوية ذهنية مغلقة ، أعفت المؤلفين فيه من البحث في الاسترهانات الحية التي تسببها هذه الأنظمة ؟ فخطر هذه الأنظمة المألوف هو أن نكتفي بها .

من جهة ثانية ، لا يبدو أن علمنا ماذا كانت فكرة المعلم ، المخبّأة في موضوع اللاوعي ، أمر ذو أهمية . فعلم التحليل النفساني حقل فُتح بفضل عبقرية مَن وضعه موضع القبول المعرفي . وهذا التحليل ولـّد ، في ما ولـّد ، تطبيقات يجوز لنا أن نفهمها وأن نُلقي عليها ضوءاً كاشفاً . غير انه يبدو لنا ان تطبيق التحليل النفساني يدين ، بصورة أخّاذة ، الحاجز الرقيق الفاصل بين الوعي واللاوعي . فما هي الوصفة في التحليل النفساني ؟ إن لم تكن تقنية بواسطتها يُدعى المريض ، الانسان الموضوع (لا نقل المستشفي من ألم ، لأننا

سنرى ، بالضبط ، ان كل الفكرة التي قـامت عليها الوصفة تنحصر في أن يخلّ الانسان الموضوع في وضع يمثـــل دوره التجديدي) الى إبراز صور واضحـة ، وعواطف ، وأهواء ، وعذابات ، كان قد « انتبذها » من على لوحة وعيـه الصافية ، الى ظلمات لا وعيــــه . وقد كشف فرويد عن هذا الموضوع كشفاً دقيقاً ، إذ قال : هناك حيث كانت المجموعة من الاندفاعات الغريزية ، يجب أن تكون الأنا . وموضعنا الذي ننسّقه هنـا هو أن هذه العبارة توجب القول بأن الانسان الموضوع يجب أن ينقّي « أنا » تكون أكثر اطمئناناً بإبرازه ، على لوحة وعيه الصافية ، لم يكن يلتقطه إلا في صورة عكرة . إذن ، يوجـد ضمائر صافية نيّرة وضمائر أقل صفاءً ونوراً . ولكن ، بالحقيقة ، أليس قوام حياتنا الذهنية في أن نُمرّ دائماً ملتقطاتنا ، وأحكامنا ، وعواطفنا من طابق الى آخر في وعينا؟ هذا ما تقتضيه ضرورة حياتنا العادية ، وهو أن نأخذ كل واحد ، من المواضيع التي تهمّنا ، بدوره ، في منشإ انتباهنا . والاجتهـــاد الموسّع ، في إخفاء نزعاتنا وعواطفنا ، هو هذا الفعل الذي بواسطته يُرينـا فرويد كيف أننا نمنع أنفسنا عن رؤية مـــا فينا . واللاوعي ليس فرداً آخر ، انه جزءٌ منا ذاتنـا نرفض أن نراه . وجسر العبور هو هذا الاجتهاد الموسع المتناول تحديد الغير بالميزات ،

ممـا يجعلنا ننسب ، الى الغير ، ميزات وقعنـــا عليها عند شخص ما . والوصفة التحليلية هي هذا الوضع الدي يحاول فيه المحلل أن يتيح للمحلـّل أن ينظر في ذاتـــه ، أخيراً بوضوح ، ليُعيد مراقبة أجزاء ذاته كلها . وتحت هذا العنوان ، تبـدو الوصفة التحليلية طريقـــة للسيطرة على التحاديد بالميزات المضادّة ، وذلك باعتماد الوعي .

ان التحديد بالميزات يوضح الى أي حدّ يجد ذاتـه الشعار الذي يتناول الغير ، أو على الأصح ، كل معرفة تتناول الانسان، وموضوعه ، مبرّراً في الواقع ؛ وهـذا تبرير أقرب ، على كل حال ، الى إثبات نجاحه منه الى إثبات قيمة هذه المعرفة . وفي الواقع ان المعرفة ، عندمـا يكون متناولها الآخرون ، ونحن ذاتنا ، ونحن الآخرون ، ليست حيادية ، وليست ، كما يقولون في كلمة أُسيء استعمالها جداً ، موضوعية . وحقيقة الأمر ان المسألة ليست في معرفة ما اذا كانت موضوعية أولاً ، ولكن في معرفة الطريقة التي جعلت متناولها موضوعاً ، والطريقة التي بواسطتها يجد الكائن الموضوع موضوعه ، ويتحقق في الموضوع المعلوم . وهنا ، كثيراً ما تقام المناقضة بين الموضوع والكائن الموضوع . ولكن الكلمات مملوءة بالفخاخ . فالموضوع الذي تطلب معرفته يمكن أن يكون شخصاً ، أو كائناً لا واعيـــاً

أو شيئاً لا يتحرك . والقول إن معرفة الشخص يجب أن تهدف الى الكائن الموضوع قـولٌ يتناقض والصوتية اللافاعلة في كلمة « موضوع » . فقد رأينا ان الشخص ممثّلٌ في فعل المعرفة بحدّ ذاته . ومن جهة أخرى ، ان المبتدأ العادي للموضوعية ، الذي ، كما يقول سارتر [1] ، مختلطٌ مباشرة بمبدإ الخارجية ، أو بصورة أصدق ، بمبدإ الحيادية ، قد وضعه التوسع في التحديد بالميزات في صعوبة ، هذا التوسع الذي ينفذ الى أعمـــاق كل العلاقات الانسانية . وانه لمن الواضح ان معرفة الغير واحـــدة من أبرز هذه العلاقات ، في حدود ان كل علاقة بشرية تتضمن ، بصورة ما ، معرفة متبادلة بين الأشخاص الذين يدخلون في العلاقـة . والتقدم في معرفة الغـير ، وتحريرها من الأهواء المعمية ، ومن التحـــاديد بالميزات المفقرة ، ومن الاستقرارات والتبسيطات المشوّهة ، كل هذه لا يمكن أن تختصر بمبدأ موضوعية المعرفة . فمعرفة شخص الغير هو فعل يساعد على الوقائع البشرية ، وهو يكشف عن حقيقتها . ولقد عبّر غي بالمـــاد [2] ، الذي نحن مدينون له بمفهوم التحديد بالميزات ، عن رأيه مؤكداً ما يلي :

---

(١) ج. ب. سارتر ، الخيال ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٣٨ .

(٢) غي بالماد ، وحدة العلوم الانسانية ، باريس ، دونو ، ١٩٦١ .

« على صعيد الانسان ، ان تصفية الحقيقة هي عمل يبني هـــذه الحقيقة » . وفي تعبير آخر ، اذا استخدمت مفهوم الرجـــل الكبير ، والعامل النشيط ، والعالم المجهد نفسه ، فلي من هؤلاء شغلٌ يتناول أشخاصاً من هذه الفئة ، كما يتناول كائنات داخلة في هذه الفئة ، ساعة تحديدها بالميزات .

ان الانفتاحة في التحديد بالميزات تُرينا ، بصورة أفضل ، كيف تركزت ، وتوسعت ، وتأسست التوسعات في معرفة الغير ، كما تُرينا التصنيف الاختباري ، والنموذجات الشعبية من مثل التنجيم . وقد تكون دهشتنا أقل عندما نعـــلم ان كثيراً من الأشخاص استطاعوا أن يرضوا عن اعتباطية تقدير الغير ، التي هي الجدول العادي الجامع عندما نفهم ان العلاقات مع واحد من الغير ، ان هي جمعت هكذا في جدولٍ ، فإنهـــا تنزع الى إعطاء سبب هذا التبسيط . وسيبقى صعباً أن نفتش للأشخاص الغرباء ، في أنفسهم ، عن المفارقات المميزة شخص الغير ، مـــا دمنا ، في حقيقة أمرنا ، نتناول هؤلاء الغرباء كأعداء آتين من وراء الشفق ، وهم يزمجرون . واذا انتهت الحروب ، فإن حاجز لغات التخاطب يسمح بأن ننسب الى هذه اللغات كل الخصائص التي نرغب في نسبتها دون أن نخاف تكذيباً يـــأتي عن طريق اختبار غير ممكن . وفي فرنسا كثير من النـــاس الذين تعوّدوا

أن يجمعوا لثغة عامل البناء الايطالي الى وضعه المجتمعي ، فلا يستطيعون أن يتخيلوا ان ايطالياً يستطيع أن يكون أستاذاً جامعياً ذا ثقافة مصفّاة . أما المفاجأة لكثير من المواطنين ، فهي ان تحملهم على الاطمئنان الى العمّال الانكليز؛ فالانكليزي في نظرهم ، سيّد غني معتبر يجلس في عربته البادية الزوايا ، بصورة جافية . ولكي نستوثق من هذا الوضع في أخذ صورة عن الغير ، ما علينا إلا أن نرى الى أي حدّ يستطيع الشباب المسافرون ، الذين يزورون بلادنا آتين من الشمال . هؤلاء الذين يدعوهم البوليس : الشذّاذ الغرباء ، والذين يتلقاهم البورجوازي كتهديد ضدّ ممتلكاته ، بصورة لا تشغله عن أن يرى فيهم انهم لا يطمحون أبداً الى أكثر من أن يكونوا موضع درس كبنيات للتحديد بالميزات .

إذن ، التحديد بالميزات لا يحدّد طريقة خاطئة لإدخال أحدٍ في الكائن . فتحديد أحد بالميزات ، هو ، حقيقة ، تكوينه ، وتحقيقه كائناً من الفئة التي شبّه بها بالمماثلة . وهكذا يبدو التحديد بالميزات تسلسلاً توسعياً مستبداً بالعلاقات بين الأشخاص ؛ وهذه هي الحقيقة التي يصادفها الشخص في حياته المجتمعية ، ولقد سبق أن قلنا كم هي مجتمعية حياته الشخصية . وأكثر أنواع التحديد بالميزات عميّ ، أو على الأصح ، عماية ،

وأكثرها استسلاماً للتوسع في ما وراء الوعي ، ليس ، من جهة ثانية ، ما تخيلوه ، مفقداً الشخصية ؛ ولكنه ما كان مضعفاً الشخصية ، أو محدداً اياها على مستوى التخطيطات الشخصيّة المبسطة ، والمجمدة ، والجماعية . ولكنه واضح أنه في حالة إفقار الطاقات الشخصيّة ، يلعب كل شخص دوراً فعالاً : هو دور المساهمة في هذا الإفقار . ونحن واقعون تحت تأثير البنيات التي في وسطها نشـــأ شخصنا . ومن يستطيع ان ينكر ، على علماء البنية ، هذه الحقيقة ؟ ولكن ، كما قال سارتر : إذا كانت البنيات تصنع منا شيئاً ما ، فكل المسألة يصبح ، أن نعرف ماذا سنصنع بما صنعته منا البنيات .

إن الصيغة التحديدية تدخلنـــا في التفهم العلمي المتناول التحديد بالميزات . وإذا كانت معرفة شخص الغـــير ليست حيادية ، وليست فاعلة ، وإذا كانت تساعد على هذا التفهم ، عندئذ لا تستطيع معرفة بالغير ، توحيها الأخلاق ومسلكية العلم ، ان تتهرب من هـــذه الشروط . والمسألة ، بالنسبة إلى المعرفة بالغير علمياً ، هي ، إذن ،أن نهذب طريقة تبرز الشخص والتي تهذب طريقة نهجية قائمـــة على فلسفة مركزة تنمي غنى شخصية الغير بعد أن تأمن أخطار الإفقار التي يتعرض لها كل فعل معرفة كهذا .

وبما أنه ليس ممكناً القيام بمراقبة الغير مراقبة لا تكون تدخلاً في مصيره ، فانّ المعرفة التي يوحي بها علم الشخص تبحث في أن تعطي هذا التدخل ميزات تكون حائزة على أكبر قدر ممكن من الفعالية . ولكن هذا القول لا يعني مطلقاً ان الغير يجب أن يقود هذا التدخل . ولقد تكلمنا ، في ما تقدم في صدد الكلام على علم التحليل النفساني ، على هذا الوضع الذي يقدم فيه المعالج إلى المحلـــل فرصة أن يتعهد أمر نفسه بنفسه . أما التدخل من النوعية الفضلى ، الذي يهدف إليه معرفة الغير علمياً فانه يحرم على ذاته أن يلحق باستقلال الغير ذاتياً أي مساس : فهناك مسألة يستند إليها من يريدون أن يكملوا ، بأي ثمن ، تطبيق التخطيطات التي تقرّ بسيادة الطبيعة على العلوم الانسانية. إذن ، معرفة الغير كشخص ، واحترام الشخص فيه بموجب الصيغة التحديدية التي اقترحناها ، يقتضيان تحريم استخدام تدخل المعرفة كمهدم للاستقلال الذاتي ، الذي هو جزء بنائي في الشخص . والتحديد بالميزات علمياً لا يكون إلا تحديداً بالميزات بنّاء في الشخصية بناء رفيعاً ، وهو بناء يقدم للشخص المعلوم فرصة التماسك الذاتي ، إذن ، يقدم له فرصة خلق ذاته كشخص .

وهكذا نشهد ، قليلاً قليلاً ، ظهور مسألة الشخص أمامنا

قائمة : في رؤيتنا ، في الكائن الانساني ، ميزات الشخص ، وقد أهملتها التحاديد الميزية الفقيرة ، كما هي قائمة في إبرازنا ، بجهد فاعل ، الشخص في الكائن الانساني . فاذا مدّدنا تعبير فرويد نقول : « هناك حيث كان الفرد ، يجب أن يصير الشخص . » والكلمة « يجب » ترينا بوضوح أننا أمام استعمال صيغة أمر معنوي ، أمر يستدعي جهدنا العملي . إذ ليس من شخص دون ممارسة استحداث الشخصيّة . وقد رأى ماركس أن المسألة المطروحة للحل قائمة في تغيير العالم أكثر مما هي قائمة في معرفته. فمعرفة الغير تطرح مسألة معرفة الشخص أقل مما تطرح مسألة خلقه .

في العلوم السيكولوجية تفردت السيكولوجيا المجتمعية ، في صورة لا جدال فيها ، بالتوسع في أكثر الابحاث النظرية والعملية الرامية إلى إبراز الشخص من خلال تفهم العلاقات المتبادلة بين الأشخاص وممارستها (هذا يبدو مغايراً الرأي العام عند الأدمغة التي تستشري في إقامة الفرد نقيضاً للمجتمع) . أن مجموعة مؤلفات مورينو ، خالق مسرح المرضى ، تتوجه نحو ممارسة مقترنة بمماثلة المرضى عن طريق مراحل المرضى وطريقة العناية بهم في حالات الاضطرابات التي تعتريهم عند دراسة شخصياتهم . وعند اعتماده طريقة اللعبة التمثيلية ،

وإستناده إلى ما يحسه من اطمئنان إلى ممثلي مسرحياته الصغيرة، مقلداً فيها أساليب تشخيصهم الشخص في علاقته بالغير ، يقترح عليهم مورينو أن يتحرروا من القيود التي تغلهم ، ويستردوا سيادتهم على شخصياتهم . ومورينو صاحب الفلسفة المتحدة في ما يتولد عن علم التحليل النفساني .

٧

معرفة فاعلة تتناول الغير : المشاركة

بما أن الانسان محروم من القوى الغريزية ، التي تدفع بالحيوان ليتحرك في الاتجاه الملائم لإطالة بقاء الفرد ونوعه ، فهو مجبر ، لاتخاذ طريقه في الحياة ، على أن يهذب معرفة له بالعالم ، الذي اكتشف نفسه في قلبه ، تكون الوسيلة الوحيدة لسبق النظر ، وتلافي النتائج المترتبة على اختياراته بغية تحقيق مشاريعه وبلوغ أهدافه وإكمال تطلعاته .

وإذا كان الحس ، كما يقول ه . بيارون ، دليل حياة للكائن الحي ، فالشخص المتنبّه الواعي لا يستطيع أن يقود حياته الا على طريق معرفة الأغراض والكائنات التي في وسطها ينمي وجوده . وعندما تقتضي الحال أن نتطلب في الغير شخصاً ذا ضمير ، غير شخصنا ، نتبادل علاقاتنا معه ، بشكل مميز ، تساندها لغة رمزية ، فالمعرفة تطرح عدداً من المسائل النوعية التي مررنا بعرضها . وهذه المسائل ذات صلات بمحتوى معرفة

ما هو الغير ، وقد عرفنا أن هذا المحتوى يقتضي خلق نمط من المعرفة يتطابق وقوانينه .

شخص الغير هو بنية ، وهـــذه البنية في تطور . ففي كل أونة تكون هذه البنية أصالة فردية . وتطور هـــذه الفردية البنيوية ذو صـــلة بوجود القوى التي تنمو وتنتشر في مجرى الاتصالات الواعية الواضحة أو المظلمة ، وفي سوانح العلاقات المتبادلة بين الأشخاص . والتحديد بالميزات يدلّ على توسع هذه الديناميكية . ووضوح الضمير في التوسع هو شرط سيطرته ، ومفتاح تنقية الاستقلال الشخصي .

وهذه القواعد ، التي تأخذ بعين الاعتبار الجهد في معرفة الغير ، هي تكميلية . ولكي تسترد هـــذه التكميلية صيغتها التحديدية العزيزة عند الفيزيائيين المعاصرين ، جاءت مظهراً هاماً لقيمتها . والتحديد بالميزات ، الذي يفسر دور التطور ، الذي لا تأبه له المنضجات الداخلية ، يتسع بواسطة الضمير ، يعني التوسع البحثي الأكثر تعقداً في الحياة الذهنية . وهكذا يتضح أن التطورات السيكولوجية لا تتم بواسطة أليات بسيطة وموحدة المعنى في كلّ الحالات . وفي ردة الفعل التي يثيرها اعتماد الضمير يتدخل تعقد التوسعات الضميرية البحثية . وقد كشف جاك سوفان عن أن التعقد في حادث ملحوظ يدخـــل

مبادلة بالنسبة إلى حادث بسيط ، يتألف ظاهراً من عناصر من سمت واحد . أما الحادث المعقد فهو من طبيعة أخرى غير طبيعة أو طبائع الحوادث التي يتركب منها . وفوق هذا ، قد علمنا أن هـــذا التعقيد هو بنيويّ ؛ إذن ، نحن أمام سبب مزدوج لفتح حقل من الامكانات لا حدّ له ، وهي إمكانات ذات أشكال مفتوحة على الشخص . وهكذا فان أل «معلولية» السببيّة ، تبعاً لكلمة بيار فاندريس ، التي تتناولها التوسعات في البحوث السيكولوجية لا يمكن، قطعاً ، أن تواجه كتحديدية مباشرة للنتائج بدءاً من الأسباب . فوجود حلقات ، وتشعب لا نهاية له في شبكات الأسباب والنتائج ، وهي شبكات تبعث إثارات ترتد بالتوسع البحثي إلى العمل بالتبادل بين الأشخاص ، كلّ هذه تمنع أن يكون معقولاً ، في العلم بشخص الغير ، أن نواجه سلاسل موحدةالمعنى في كل الحالات التي تتناول الأسباب والنتائج . وفي الحقيقة السيكولوجية ، نرى أن أسباب التغير ، مع الأخذ ، بعين الاعتبار ، كل العوامل العقلية المسيطرة ، تثير نتائج نستطيع ، بناء عليها نصوغ أحكاماً ترجيحية مسبقة . ولقد كشف بيار فاندريس[1] عن حقيقة الترجيح فاظهر أنه في

(١) بيار فاندريس ، حياة وترجيح ، باريس ، ألبان ميشال ١٩٤٢ . أنظر أيضا للمؤلف نفسه : العلاقة المفصلية ، جريدة المجتمع الاخصائي في باريس ، الأعداد ٤و٥و٦ ، ١٩٦٧ .

التسلسل التحديدي ، الميزة الاساسية لكلّ الحوادث الحياتية . وهذا الترجيح يدل على استقلال الحياة الفيزيولوجي بالنسبة إلى محيطه المباشر . أما على مستوى التوسعات الواعية ، فالترجيح يأخذ ، غالباً ، ميزة الاختيارات الرامية إلى سبق النظر : مستقبل الشخص ، إذا اعتمدنا ، في موضوعه ، انّ هذه أو تلك من العمليات ، سيكون هذا أو ذاك . إذن ، على تقنية معرفة الغير ، والمشاركة في مصيره ، أن تقبل هذه التخمينات المراقبة . ولكننا ، على كل حال ، لا نتبع كلياً ب . فاندريس عندما يسمي هذه التخمينات اللاتحديدية . وهكذا يبدو لنا أولاً أنه لابد من شكل ما للتحديدية . ولكن درسا معمقاً يجريه الفيزيائي يرينا ، من جهة أخرى أن كل الأحكام المسبقة تستخدم ، بشكل موسع ، الطريقة الترجيحية . وهذه هي نفسها أداة العمل العادي في فيزياء الميكرومادة . ولذلك ، فان طريقة التحديدية المطلقة التي خلقها علماء الماورائية ، هي أقرب إلى أن تكون مدركاً علقياً مطابقاً كل المطابقة المفهوم العلمي ، من أن تكون فكرة ما ورائية تجهل التطبيق العلمي .

ومهما يكن الأمر ، فان معرفة الوقائع السيكولوجية ، على مستوى الشخص ، لا يأتي التعبير عنها في غير صيغ الممكنات . ولا فرق بين ممكن وآخر . ولكن ما تتركه معرفتنا البنيوية

التطورية بالشخص مفتوحاً عن عقـــل ، بالاستناد إلى حالة مواهبه الحاضرة ، هو من أين جاء وإلى أين يبـــدو أنه ذاهب .

واذا كان التحديد بالميزات يُفهم ، بصورة أفضل ، في أيّ شيء تقوّم هـذه التغيّرات الشخصية ، واذا كانت البنية تلقي ضوءاً كاشفاً على تعقد هذه التغيرات وغناها ، فان البنية نفسها تفسر ، بواسطة تغـير امكاناتها الذي لا ينتهي ، وما هي أصالة فردية الشخص . ومن جهـــة أخرى ، نرى انّ بنيوية عناصر الشخصية هي التي تمكن ، في بعض الظروف التي وصفناها ، من بلوغ أصالة كلّ فرد ؛ وهـذه الأصالة ، تتقوم اساساً بالطريقة التي بموجبها ترتبت ،في كل شخص ، العناصر السيكولوجية التي منها تكون ، والتي يمكن ان تكون نسبياً قليلة العدد . وهناك تكميلية مدركات عقلية موضحة ، وهـــذه التكميلية هي ، في الوقت ذاته ، وسيلة لفهم غنى هـذه الحقيقة ، التي يكونها الشخص ، فهماً أفضل ، وطريقة لتوسيع هذا الغنى ، بواسطة العمل المطبق تطبيقاً صالحاً بالاستناد الى الامكانات التي تفتحها المعرفة . وهي تكميلية تعين على زيادة فهم مبـدإ المعرفة الفاعلة التي استطاعت ان تظهر مفاجئـة الفكر ، في الأونة التي اقترحناها فيهـا . وهكذا فان التأثيرات المتبادلة بين ميزات

شخص الغير تظهر التضامن الحي بين فعل المعرفة عند شخص وتطور بنياته الفردية .

والآن ، بعد أن جمعت لنا هذه المعطيات ، فقد أصبح ممكناً أن نواجه الصعوبة الكبرى في المسألة ، هذه الصعوبة التي قد نكون أثرناها مع قليل من الخفة ، في هذا المؤلف الصغير . وبما انّ معرفة الشخص ليست حيادية ، وبما انها مشاركة في خلق هدفها ، فكيف نستطيع ان ننظم هـذا التناقض الظاهر بين احترام استقلالها الذاتي ، والاخذ بعـين الاعتبار ، قوانينها الخاصة ، وبين واقع أن تأسرها المعرفة نوعاً ما ؟

ولنلاحظ أولاً انّ المسألة ليست محدودة بمعرفة الغير ، كما سبق لنا ان عرضنا . وهو ذا نحن مستعدون ان نري القارىء ، إن كان ما يزال يحلك بعض لحظات انتباه ، ان المسألة هي على العكس تماماً . فوقوع الشخص في اسر المعرفة التي لنا عنه هو بالضبط موضوع هـــذا القلق المصيري الحديث الذي سبق أن اشرنا إليه أولاً ؛ إذ ان الضمائر في حالة خوف من ان ترى ذاتها مردودة الى صنف المواضيع المحالة على الآلة ، أو ، ان جاز القول ، محدودة بمعرفة علمية أوحت بها علوم الطبيعة . اذن ، ليس من المعقول ان نأخذ في تغذية الأمل بالاستعاضة عما يمكن ان يعتبر معرفة ذاتيــة سيئة بمعرفة أخرى تستطيع ان تتنصل

من عيوبها بصيرورتها موضوعية. واذا عرفت كحصاة أو جذع كرّات ، ولنقل هـذا بشكل تقريبي ، فذلك لأن من يعرفني هكذا يردني الى وضع الكرات أو الحصاة . وعندما أعلم من أنا ، فان علماً كهذا سيعلم الى اين أمضي ، فلا استطيع بعد ذلك أن أختار الى أين سأمضي . ولذا ، بالضبط ، لم ننقطع عن التحليل في هذا النص : انه لكي نحترم ، في الشخص ، الكائن الذي يختار حياته من خـلال مآخذه الواعية وقراراته ، لا يجوز لنـا ان ننظر إليه كموضوع ، مصيره يتسع على طريق واحدة ؛ وهكذا فان صيغة التعبير : موحد المعنى مع اختلاف المواقع ، هذه الصيغة التي كررناها مراراً ، في ما تقدم من الكلام ، تجد الآن تأديتها مستوفاة في هذا المكان .

والمعرفة التي نقترحها ، على العكس من تلك التي تكلمنا عليها ، يتعين هدفها في معرفة شخص في ظرفه الشخصي ، وليس في حالة موضوع لا فاعل . واذا كانت المسألة في هـذه المعرفة ان يخلق الباحث ، في موضوع معرفته ، صفة حسنة ، فانها لن تكون غير صفـة شخص ، وهيَ الصفة التي تستردها . وفي الوقت نفسه ، من جهـة أخرى ، فان الباحث ، بوضعه من يؤكد تجرده من شخصيته أمام مسؤولياته ، يرفض له السهولة التي كان ينتظرها حلاً في لجوئه الى سوء الإئتمان . وهوذا نحن

نبدأ في ان نشاهد التوسعات البحثية في تحقيق ملموس نجسد فيه هذه المعرفة المشخصة . معرفة الغير ، لنقلها مستعملين كلمة إنتقص من قيمتها ولكن لتبقى غنيـــة في معناها ، قانونية التشخيص ، تقدم للشخص حقلاً خاصاً من الاختيار والحرية ، يجب ان تنمو وتتسع في حوار بين العـارف والمعروف ؛ لأن الرؤية المشخصة لا تعرف أن تنتقص من شخصيـة شخص المعروف ولا شخص العارف . ولكي نقول الصدق الذي نؤيده كلّ التأييد ، نعتمد هذا الرأي السليم : لا يمكن ان يوجد الا تبادل معرفة شخصية واحدة تجريه العلاقة المصفاة بين شخصين. وهذه العلاقة المصفاة لا يمكن ان تنفصل عن الأعمال التي من خلالها تبنى هذه العلاقة . ولذلك ، إذا إعتبرت لغة التخاطب عملاً ، وعملاً من أبرز الاعمال ، فان كل نوع آخر من الأعمال الممارسة في مشاركة تثير أيضاً معرفة مكثفة متبادلة . ونحن نعلم كم هو مفيد ، لكي يعرف أحد الناس ذاته — والصيغة المعبرة تضع موضع التأكيد تبـــادل كل معرفة بالغير — من تقاسم أويقات الحياة ، والأخطار ، والملذات . إذ لا شيء أدعى الى الكشف عن الأشخاص من بعض اختبارات حياة مشتركة : سجن ، رحلة ، حب . كاشف بكل معنى الكلمة ، حيث يرى الأشخاص وقد كشفوا عن أنفسهم أشخاصاً جدداً أمام أعين

الغير وأمام أعينهم . اذن « المشاركة المكثفة » بين علاقات الأشخاص ، خالقة موضوعية ، بمعنى ان الاختبار الخلاق معرفة هو ، أيضاً ، خلاق هدفه . وقد رأينـــا ان العناصر التي اكتشفتها المعرفة من خلال العلاقات المتبادلة بين الأشخاص هي امكانات يبقى لنا ، أيضاً ، أن ننتقي من بينها . وكما ان الجبر الوراثي ما كان ليعين ما يمكن ان يكون هذا أو يكون ذاك ، فان اكتشاف الغير لا يقول من هو ، ولكنه يقول من يمكن ان يكون إذاً بصورة مفاجئــة ؛ شرط أن ... وهكذا يبقى واقع الكائن الشخصي أبعـــد من الوصول إليه إلا في تعبير ترجيحي يتناول واحداً من ترجيحات ، وهذه الترجيحات تدل في ما تدل عليه ، على مستقبلات ممكنة ، متصلة بالقرارات التي ستؤخذ ، وبالأعمال التي ستباشر ، وهي تظهر كيف ان معرفة منفتحة على الغير ، كما نفترض ذلك ، لا تقوى على الدخول في مخاصمة التطلعات الى الاستقلال الذاتي ، وليس هذا فحسب ، ولكنها ، أيضاً ، تزيد في «وسائل» هذا الاستقلال . لأنه آن لنا أن نعبر ، بصورة أوضح ، عن الاستقلال الذاتي ، أو عن استعمال كلمة الحرية التي أفسحت لكثير من الاختلاطات للبحث . وحرية الشخص لاتعني استطاعته ان يعمل أي شيء ، وكيفما اتفق ، وفي الفراغ . حرية الشخص ليست وضعاً دون بنية

ودون أساس ، ودون نقطة ارتكاز . فالحرية الحقيقية المحسوسة هي حرية ان نختار ، بين امكانات إكتشفت بطرق معقولة ، الامكانات الأكثر استجابة لتطلعاتنا (بعد تصفية هذه التطلعات أفضل تصفية كاملة ممكنة) ، وان نضع في الطريق ، مستندين الى الضرورات التي يجب ان نتحسب لها ، الأعمال الأكثر ضماناً لبلوغ مرامينا . إذ ليس من وجود لحرية حقيقية ، ولا وجود لاستقلال ذاتي محسوس ، اذا لم استطع أن استند ، في ما حولي ، الى مسلسلات من الأسباب الى النتائج تحملني على الأمل ببلوغ نتيجة سعيدة لمشاريعي . وهذه التحديدية المحسوسة ، الصالحة لأن توضع موضع العمل (بأقوى ما للكلمة من معنى مضمون جداً) ليست التحديدية المتناولة الماوراء المطلق هذا التناول الذي يحتجزني في فكرة الكون المغلق . وهذه التحديدية العملية هي تلك التي اكتشفها في استكشافي الشروط الظرفية المقدمة لعملي ، تلك التي استند إليها لتحقيق حريتي . وهكذا أرى ان شرط تمرين الحرية الظرفي المحسوس هو معرفة معمقة ، منفتحة ، ديناميكية ، تتناول الأشخاص المحيطين بي كما تتناولني في الساحة نفسها . والمعرفة بالغير الفاعلة هي احدى الأدوات الضرورية لتهذيب استقلال الشخص ، بعيداً عن ان تحتجزه في تعيين موضوعي . وهوذا نحن الآن نتذكر صيغة

التحديد السبينوزي ، التي تناولها ماركس فقال : الحرية هي وعي الضرورة . وقد أحدثت هــذه الصيغة ضريراً محقاً . والحقيقة ان هذا التعبير يمكن ان يكون مشؤوماً ، وفي بعض الظروف ، يكشف عن التناقض الماركسي ، الذي لم يوفق مرة الى إيجاد حل للمتناقضين المنتهيين الى غاية واحدة دور الانسان في التاريخ ، وتطور التاريخ الاجباري[1] وبالنسبة الى ماركس فقد تراءى له ان الحــل النهائي للتطور المجتمعي ، في المجتمع الاشتراكي ، مسجل على شريط التاريخ . والانسان ، لكي يزيد في تحسين هذا الزعم ، زاد في حركة التاريخ بتعجيله قليلاً صور الثورة . ولكن صور الثورة ونهايتها قد أصبحت مسجلة على صفحات دقيقة من التاريخ . ومع هذا فان لكلمة وعي معنى آخر ، يمكن ان يكون ماركس قد واجهه ، وهو معنى يري ببساطة كيف ان وعي الضرورات ليس الحرية ، ولكنه شرط تحقيقها . لأنه يبقى تحقيقها . فالحرية ليست حقيقة متكاملة ، حتى أنها ليست حالة ، انها ، كما سبق فقلنا ، تمرين ، وممارسة . فالانسان ليس حراً ، ولكنه يصير كذلك ، كما كررنا هــذا

(١) وقد كشف عن هذا بول كاردان ، في سلسلة مقالاته المكثفة التفكير الماركسية والنظرية الثورية ، مجلة الاشتراكية ، الأرقام ٣٦ ، و ٣٧ ، و ٣٨ ، و ٣٩ ، و ٤٠ .

القول كثيراً ، ولكن الأكثر من هـذا أيضاً هو أن يحيا المرء حراً عندما يمارس تحرره . وقـد رأينا كيف ان معرفة الغير تسهم في هـذه الممارسة . « إعرف نفسك بنفسك » ، تقول الكتابة التي تعلو مدخل هيكل ديلف . ومعرفة لشخص لا تتم بالنظر إليه من الخارج وان نتبينه كما نفعل في تبيننا ساعة حائط فمعرفة الغير هي العيش معه ، والطواف معه الى آخر سبيل على طريق الوجود المشترك ، في الحوار ومشاركة العمـل . وموضوعية معرفة الغير ليست خارجية موضوع المعرفة ، إنها المشاركة في المعرفة المتبادلة . وعندما تكتسب هذه المشاركة اتسـاعاً كبيراً يفسحه الاستعلام المرجعي ، والتكرار فتغدو مشاركة عامة . ولكن الأساس الدائم لمعرفة الغير هو ممارسة العلاقة بالغير . وأمـل الانتقال بالتعميم من نطاق الفريق أو الجماعة الى كونية الانسانية كان حلم العلماء الانسانيين ؛ وهو دائماً الغاية التي تهدف إليها ثقافة لا تنقطع عن الامتداد نحو التعميم ، وليس مستحيلاً أن تنجح مقتضيات عملية ، من مثل التضامن البشري أمام خطر الدمار الشامل ، في تعجيل هـذه الانفتاحة الانسانية الكونية على كل الأشخاص . ولكن هذه المصيرية الأرضية ليست محفورة على اية قطعـة رخام ، ولا مكتوبة في أيّ كتاب ، ولا مرسومة على أيـة سماء . وهي

ما تزال موضع عمل . ومن الممكن ان تبقى دائماً كذلك ، على الأقل مادام على الأرض مخلوقات ذات مُجمل ميزات يشبه المجمل الذي نسمي أصحابه بشراً . ولكنه من الممكن ان يبلغ الانسان غاية أُخرى ، اذا وصل ، لسوء الحظ ، الى إضاعة هذه الأبعاد التي يقيم لها هيكلاً في خياله ، ويجعلها غاية لمشاريعه ؛ فيبقى ممكناً ان يضل طريق تحقيق الشخصية ، وهي الطريق التي تمتدّ في استمرار . واذا كانت حقيقة الانسان كما يقول ل . مالسون : « هي فكرة مكتسبة ، من الآن فصاعداً ، وهي ان الانسان ليست له طبيعة ، ولكن له تاريخاً ، أو على الاصحّ ، أنه هو تاريخ[1] » ، وهذا التاريخ ليس مدوناً في كتاب المستقبل، هذا التاريخ وجد ليعمل . والانسان ، هــــذا المخلوق الأبديّ المراهقة ، أو كما يقول غ . لاباساد[2] أنه قيد « الدخول في الحياة» هذا الانسان الذي لم يكن مرة سوي الخلق ، مكتمل الرشد ، يستطيع ان يحقق مستقبلاً للتوسع المشخص ، أو على العكس ، أن يغرق في الدهرية المفقدة الشخصية ، دهرية تغلب القويّ على الضعيف في المجتمع . « الانسان يستطيع ان يصير أيّ

(١) ل . مالسون ، الأولاد المتوحشون ، مجموعة « ١٠–١٨ » ، الرقم ١٥٧ ، ١٩٦٤ .

(٢) غ . لاباسلا ، مدخل الى الحياة ، باريس ، ١٩٦٣ .

شيء ، وهذا متوقف عليك ، قليلاً »[1] . بهـــذا القول اختصر جوزان دورانتو مؤلفات غ . لاباساد ، مظهراً ، في الوقت ذاته مرونة المستقبل الانساني ، والقلق الأساسي الذي هو قلقنا في مواجهة مستقبل الانسان والمسؤوليات التي تقع علينا في هـذا المستقبل .

اذن ، الانسان وجد ليعمل ، وهذا العمل متوقف عليه . واذا كنا لا نتردد أمام اللعب بالكلمة فاننا نقول : ان هـــذا العمل هو شأنه . والانسان ليست له طبيعة ؛ وبصورة ما ، ليست له كينونة ، ولكن له ، كما قيل ، مستقبلاً ؛ وهذا ليس كثيراً ان قلنا « مصيراً » ، صيغة من معنى فعل كان ، بمعنى وجد . وما يجب ان يتغير هو في الفعل ؛ إذ ان الشخص ليس كائناً إنه عمل . فمعرفة الغير ، اذن ، هي معرفة نموذج يختلف اختلافاً كلياً عن الآخرين . وهي معـــرفة لا تفتش لتجد ، ولتحدد ، ولتماثل بين الكائن وموضوعه ، أنهـــا تفتش عن « مشاركة » الكون العمل الذي هو كون الشخص الذي تهدف إليه . كون عمل يجري فيه الصنيع بالتبادل : فالشخص يجري في سباق ليصنع نفسه في عالم يسابقه للغاية عينها ، وهو العالم الذي صنع الشخص عينه . « نحن نصنع العالم الذي صنعنا » ،

---

(١) ج . دورانتو ، جريدة لو كومبا ، ١٨ أيار ١٩٦٤ .

فالصيغة التعبيرية الوجودية تختصر كون العمل هذا ، الذي يكتشف الشخص نفسه موجوداً فيه .

الشخص البشري غير كائن ، فهو يصنع ويصنع نفسه ، ولكنه لا يصنع نفسه كيفما كان ؛ انه يصنع ذاته ضمن شروط معينة ، آخذاً بعين الاعتبار هذه الشروط ، ومستنداً إليها لأجل تحقيقها . وبين هذه الشروط يجب ان نترك نصيباً هاماً لما سنسميه « الملاءمات » . فالأعمال البشرية لايمكن ان تنجح إلا اذا تدخلت في ملتقى سبل الامكانات الخارجية والطاقات الداخلية . كما يحدث ، مثلاً ، في حالة نموّ الشخصية وتوسعها في عهد الحداثة . فالحدث لا يتعلم أيّ شيء في أية أونة . وكما واجهنا الأمر في ما تقدم من هذا المؤلف الصغير ، ان تعلم أيّ شيء لا يكون ممكناً إن لم يقم في داخل الولد نموٌ داخليّ يفسح لشخصه بروز القدرة على الإفادة من الاختبار الذي يصادفه ، وما لم يكن نضج الإمكانات قد جعله قادراً على تحويل الاختبار مؤونة لتوسعه في نموّه . ولكن ، في الوقت نفسه ، يكون من نتائج الاختبار أن يثير ، في ردة فعله ، توسعاً في الامكانات . فهناك أيضاً حلقة ؛ الاختبار ليس ممكناً إلاّ بفضل النضج ، الذي لا يتفتح الاّ بفضل الاختبارات . وعلماء النفس الذين يدرسون مجمل عناصر الكلمة وعواملها يعلمون جيداً ، اليوم ،

انّ اكتساب لغة التخاطب يجب أن يتمّ في وقته وان التمرن ، على محاولات الكلام الأولى ، أمر لا بد منه للتفتحات المتتالية التي تنتهي بالولد ، قليلاً قليلاً ، الى السيطرة على الكلام . ولكن اذا تركت الساعة الملائمة ، فالتعلم يصبح أمراً غير ممكن ، لأنه عندئذ يحـــدث انطفاء في الطاقات . وهو التوقيت الملائم في التمرن ، وحده ، الذي يتيح لهذه الطاقات ان تكون عنـــد أصل طاقات أخرى أكثر تعقداً تنتظر ان تتمرن ، بدورها ، لتولد طاقات أخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية له . ولكن قطار الطاقات يمر في ساعته المعينة ، ولا يجوز أن يتأخر عن وقته . لأن هذه الطاقات شديدة الهرب ، وتتلاشى إلم نستغل وجودها في وقت تفتحها . وفي هذا السياق المنطقي من الحلقات التي تينع بعضها في اثر البعض الآخـــر ، والتي في مجرى تتابعها تتوسع الفرديات تبعاً للطريقة التي وصفناها (بنية ، وتحديد بالميزات) ، ونهاية كل شخص موضوع سببية في كل أونة . وقدرها غـــير مكتوب في أي مكان من أصولها ، تلك الأصول التي تفجر إمكانات ، أو على الأصح ، كما يقول ل . مالسون « مفاجآت ظرفية » . وهذا التلاحق التوسعي في وجود ما ، حيث النهاية غير مسجلة في البدايات ، ولكنها مشار إليها من زمن بعيد ، ولاستعمال آخر تحت اسم « سنبلة العناصر والعوامل » . وهذه

السنبلة اذا جاءت على مستوى توسع الشخص ، فانها تدل على طريقته الخاصة في التوسع حيث المخرج غير داخل في محتوى التمهيد للخلاصة . والشخص يكون سنبلياً (نسبة الى سنبلة العناصر والعوامل) ؛ والنمط مفيد في استعادة موقف الصحو بعد الدوار « الدوخة » الذي أُصيب به الذهن في مواجهة الحقيقة الشخصية . والآن يتضح لنا ، في صورة أفضل ، لماذا لا يمكن ان تكون معرفة كائن سنبلي العناصر والعوامل وضعاً لافاعلاً في الوصول الى الحقيقة ، ولكنها لا تستطيع إلا ان تسهم في هذا الوصول . ومعرفتنا تحيا كما يحيا مجمل العناصر والوقائع الذي يهدف إليه ، وكما أننا نحن ، نحيا موجودين في المعرفة .

خلاصة

الشخص سريع العطب

سيقال : « كل هذا جميل وجيد » . لنفرض ان الشخص هو هذا الكائن الذي يسهم في العمل ؛ انه يخلق نفسه في قلب عالم يؤثر عليه حتماً ، لكن الشخص يمضي في سباق الى خلق وضعه الاستقلالي الذاتي ، بفضل طاقته التي يقودها ضميره في تفاوت من صحوه . هذا يمكن ان يكون حقيقة بالنسبة الى نخبة تطمئن الى الوعي ، منفتحة على العالم وعلى نفسها ، يقظة نقادة ، ولكن بالنسبة الى الجمهور الجامد ، اللافاعل ، ذي الفكر الذي زيفته الدعاوة ، هذه الأفكار الجميلة لا قيمة لها . فكم من مرة سمع المؤلف هذا الاعتراض عندما كان يعرض شفوياً بعض هذه الأفكار المثبتة هنا !

نحن لا نذعن لهذه الحجج التي تبدو لنا فاقدة أساس المسألة . فيجب ان نلاحظ أولاً ان الأشخاص المهتمين بتحقيق استقلالهم الذاتي ، الذين يضعون موضع البحث البنيات التي تقترحها عليهم العادات والأحكام المسبقة ، هم أكثر عدداً مما يبدو لأول مواجهة ولنتذكر ان مدخلنا هو ، في قسم منه ، ثورة الأشخاص في وجه من يظهر لهم موضع شبهة في المساس باستقلالهم الذاتي .

فاذا كانت هناك نخبة مهتمة بالتوسع الشخصي ، فان هذه النخبة لا تغطي ، تغطية مزيفة ، أية فئة من الفئات المجتمعية ، الوطنية أو المهنية الكائنة . وقد أخذت الضمائر المستيقظة ، في كل مكان وعلى كل صعيد ، تحاول ان تمهد طريقها بنفسها . ولكن سيكون ، أكثر أهمية ، ان نلاحظ ان فسخ الوعي الارادي عما خلف الوعي من الترك للقوى المظلمة التي تجردها بنيات العوائد، هو فسخ يتم ، على الغالب ، في داخلنا نحن ، وفي داخلنا جميعاً . وهوذا نحن نقبل ، مختارين ، من النقاد ان نضع أنفسنا في حالة تأهب ضد الأخطار التي يتعرض لها الشخص دائماً في داخل قلبنا الخاص . لأننا ، كما سبق أن قلنا ، نحن أمام الشخص كمن يواجه غزوة ، ولكنها غزوة ما نجح القيام بها مرة نجاحاً كاملاً ؛ فما كسب جولتها مواجه على سلم المؤسسات ، حيث القائمون بالغزو قلة نادرة ، سريعة العطب ، تتيح المجال بسهولة للاشاة الشخص ولم يحدث مرة أن تم الكسب على سلم تشخيصنا الخاص التقدمي. فالشخص ، تبعاً للصورة التي تركها لنا باشلار ، هو شعلة صغيرة سريعة العطب ، تحاول ان تنتصب مستقيمة ، ولكن أدنى نفخة تستطيع ان تطفئها . وهذه الشعلة الصغيرة السريعة العطب ، القائمة على شمعدان سريع العطب ، يجب أن تكون موضوع اهتمام الكثيري الانتباه الى الاعتبارات الأكثر جفوة

موسوسة . والنفخات ، التي تعرض هذه الشعلة للخطر ، كثيرة تملأ جوانب الدنيا ، في مجتمعات الناس وفي قلوب الأفراد . وان التجربة التي نتعرض لها في اطفائها،لإعفائنا من مشقة العناية بها ، كبيرة جداً ؛ ولاعفائنا من الالتماعة الصغيرة التي تلقيها على أقاليم يحلو لنا ان نتركها في الظل . لأن الحرية متعبة ، لما تلقيه علينا من ثقل الشخصية التي تكتشفها . كمثل المحلل الجالس على مقعده ذلك الذي يجد نفسه ، فجأة ، وحيداً في مواجهة حريته ، التي تدرك كم هي تقتضيه من الضمان تجاه ذاته ، وتجاه ضميره ، الذي يجد نفسه في مواجهة تشخيص كائنه ، هذا الكائن الذي يحس : بالفراغ في قرارة قفصه ، وبهذه المرارة المحشرجة في جسده ، والتي يعرفها جيداً أولئك الذين يجبرون على إتخـــاذ قرارات شديدة الأثر . عندئذ ، كم هو سهل أن نرخي ما أمسكنا ، وان نترك الشعـــلة الحنون تنطفيء ! فالشخص سريع العطب ، والشخص نادر ، إذ إننا لا نحققه في ذواتنا ، ولا ندركه فيالغير إلا في هذه الهنيهات الرضية الهاربة ، حيث ينفتح العالم فجأة لضميرنا . وهذه الهنيهات من اليقظة ، وهـــذه الهنيهات من الضمير المتنبه جداً ، هي ، كما قلنا في ما سبق من الكلام ، الذهب النقي في المعدن الذي صب منـــه وجودنا . فالميل نحو شخص الغير ، والبحث عن الوسائل التي تسله من بؤرته ، كل

هذا يمكن ان يكون ضرباً من الكيمياء المحولة الى المنذور ليبقى أبــداً خارج دائرة آمال الباحث ، فيُلحق دائماً الفشل بحجر الفلسفة . نعم ، حجر الفلسفة هو ما يجب صنعه ، والشخص هو للصنع أيضاً . ولكن ، ما من شيء أجمل من هذا البرنامج لمهمة إنسانية ، في برنامج الانصراف الدائم الى تحقيق آمال الانسان العليا .

فهرس

منشورات عويدات – ٢٧٩ / ٢ / ١٩٧٥

زدني علماً

١ ـ حوار الحضارات
٢ ـ الميتولوجيا اليونانية
٣ ـ مبادىء في العلاقات العامة
٤ ـ الوسائل السمعية البصرية
٥ ـ سوسيولوجيا الأدب
٦ ـ ادباء من الشرق والغرب
٧ ـ الجمالية الفوضوية
٩ ـ الفكر الفرنسي المعاصر
١٠ ـ الادب المقارن
١١ ـ الاسلام
١٢ ـ برغسون
١٣ ـ سيكولوجيا الفن
١٤ ـ تأملات ميتافيزيقية
١٥ ـ في الدكتاتورية
١٦ ـ الصحة العقلية
١٧ ـ دستويفسكي
١٨ ـ الاخفاق
١٩ ـ الانسان ذلك المعلوم
٢٠ ـ سوسيولوجيا الفن
٢١ ـ ايليا ابو ماضي
٢٢ ـ التخلف المدرسي
٢٣ ـ علم الاديان وبنية الفكر الاسلامي
٢٤ ـ مدخل الى علم السياسة
٢٥ ـ نقد المجتمع المعاصر
٢٦ ـ روسو
٢٧ ـ الأدب الرمزي
٢٨ ـ طريقة الروائز في التربية
٢٩ ـ مصير لبنان في مشاريع
٣٠ ـ الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر
٣١ ـ الفن الانطباعي
٣٢ ـ تاريخ قرطاج
٣٣ ـ باسكال
٣٤ ـ النظم الضريبية
٣٥ ـ المسألة الفلسفية
٣٦ ـ تاريخ السوسيولوجيا
٣٧ ـ الفدرالية
٣٨ ـ امراض الذاكرة
٣٩ ـ المذاهب الاخلاقية الكبرى

٤٠ ـ نقد الايديولوجيات المعاصرة
٤١ ـ الفلسفات الكبرى
٤٢ ـ العملة ودورها في الاقتصاد العالمي
٤٣ ـ الاجماع في التشريع الاسلامي
٤٤ ـ منظمة الامم المتحدة
٤٥ ـ الدستور واليمين الدستورية
٤٦ ـ هذه هي الحرب
٤٧ ـ الممارسة الايديولوجية
٤٨ ـ المواطن والدولة
٤٩ ـ فلسفة العمل
٥٠ ـ مونتاني
٥١ ـ علم الجمال
٥٢ ـ تدريب الموظف
٥٣ ـ فلسفة التربية
٥٤ ـ السوق النقدية
٥٥ ـ الانسان المتمرد
٥٦ ـ تيار دو شاردان
٥٧ ـ التربية الحديثة
٥٨ ـ خطف الطائرات في الممارسة والقانون
٥٩ ـ تقنية المسرح
٦٠ ـ المذاهب الأدبية الكبرى
٦١ ـ النقد الجمالي
٦٢ ـ الحضارات الافريقية
٦٣ ـ ديكارت والعقلانية
٦٤ ـ العلاقات الثقافية الدولية
٦٥ ـ البيبليوغرافيا
٦٦ ـ علم السياسة
٦٧ ـ الاعلامياء
٦٨ ـ سوسيولوجيا السياسة
٦٩ ـ الأدب الطبيعي
٧٠ ـ الجمالية عبر العصور
٧١ ـ فن تخطيط المدن
٧٢ ـ علم النفس التجريبي
٧٣ ـ اصول التوثيق
٧٤ ـ ديامية الجماعات
٧٥ ـ تاريخ العرقية
٧٦ ـ قيمة التاريخ
٧٧ ـ سوسيولوجيا الصناعة
٧٨ ـ الماركسية بعد ماركس
٧٩ ـ معرفة الذات
٨٠ ـ الفيلسوف الغزالي
٨١ ـ التعليم المبرمج

١٢٤ ـ التلفزيون الملون
١٢٥ ـ مدخل الى الاقتصاد
١٢٦ ـ الاخلاق والحياة الاقتصادية
١٢٧ ـ ماهج علم الاجتماع
١٢٨ ـ استطلاع الرأي العام
١٢٩ ـ وحدة الوجود العقلية
١٣٠ ـ الأدب الايطالي
١٣١ ـ المذاهب الاقتصادية
١٣٢ ـ الفن التكعيبي
١٣٣ ـ امل القرن العشرين الكبير
١٣٤ ـ فلسفة القانون
١٣٥ ـ الطفولة الجانحة
١٣٦ ـ الرواية البوليسية
١٣٧ ـ السياسة النقدية
١٣٨ ـ تاريح علم النفس
١٣٩ ـ الكوميديا
١٤٠ ـ تاريخ علم الآثار
١٤١ ـ السيكولوجيا الصناعية
١٤٢ ـ الدولة
١٤٣ ـ البحث العلمي
١٤٤ ـ المجتمع الصناعي
١٤٥ ـ التوجيه المهني والمدرسي
١٤٦ ـ الجوع
١٤٧ ـ التخميض النقدي
١٤٨ ـ القانون الدولي
١٤٩ ـ الدراما والدرامية
١٥٠ ـ صراع الطبقات
١٥١ ـ التصوف
١٥٢ ـ الأدب الامريكي
١٥٣ ـ الوقف والسلطة القضائية في الاسلام
١٥٤ ـ السيوية
١٥٥ ـ المسرح الكلاسيكي
١٥٦ ـ جغرافية الاستهلاك
١٥٧ ـ معايير الفكر العلمي
١٥٨ ـ الفيلسوف الشيرازي
١٥٩ ـ الادب السوفياتي
١٦٠ ـ الانسان والحق والحرية
١٦١ ـ تقنية السينما
١٦٢ ـ العقل والنفس والروح
١٦٣ ـ علم النفس الأجتماعي
١٦٤ ـ الانطمة الانتحابية
١٦٥ ـ مناهج التربية
١٦٦ ـ آداب الهند

١٦٧ ـ الوحدة والديمقراطية في الوطن العربي
١٦٨ ـ التقمص
١٦٩ ـ الرأي العام
١٧٠ ـ البلدان المتخلفة
١٧١ ـ السدود
١٧٢ ـ تقنية الصحافة
١٧٣ ـ الانسان
١٧٤ ـ الادب الصيني
١٧٥ ـ فلاسفة يونانيون
١٧٦ ـ السكان
١٧٧ ـ جغرافية العالم الأجتماعية
١٧٨ ـ طبيعة الميتافيزيقا
١٧٩ ـ تاريخ الحساب
١٨٠ ـ التربية المستقبلية
١٨١ ـ تاريح الحضارة الأوروبية
١٨٢ ـ الضمان الأجتماعي
١٨٣ ـ المحاسبة
١٨٤ ـ جغرافية السكان
١٨٥ ـ الاقتصاد في بلدان المغرب العربي
١٨٦ ـ فولتير
١٨٧ ـ التاريخ الدبلوماسي
١٨٨ ـ الطبقات الأجتماعية
١٨٩ ـ من الكندي الى ابن رشد
١٩٠ ـ تاريخ الأدب الروسي
١٩١ ـ مدخل الى السوسيولوجيا
١٩٢ ـ الحركة النقابية في العالم
١٩٣ ـ النظرية والتطبيق في المحاسبة
١٩٤ ـ الأدب اليوناني
١٩٥ ـ جغرافية العالم الزراعية
١٩٦ ـ الفوضوية
١٩٧ ـ مدخل الى الجمالية
١٩٨ ـ الأدب الاسباني
١٩٩ ـ التسويق السياسي
٢٠٠ ـ الأسلوب التجريبي
٢٠١ ـ الاسترخاء
٢٠٢ ـ بحوث في الرواية الجديدة
الخ . . . الخ . . .

RAYMOND CARPENTIER

LA CONNAISSANCE D'AUTRUI

Traduction Arabe

de

Nassim NASR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris